

مختصر البناء الفكري

البناء الفكري مفهومه ومستوياته وخصائصه



د. فتحي حسن ملكاوي



المركز البحثي الإسلامي



١٤٥٠هـ - ١٩٨١م
1401AH - 1981AC

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

مختصر

البناء الفكري

مختصر البناء الفكري

فتحي حسن ملكاوي



المعهد العالمي للفكر الإسلامي



© المعهد العالمي للفكر الإسلامي - هرندن - فرجينيا - الولايات المتحدة الأمريكية
الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ / ٢٠١٦م

مختصر البناء الفكري

تأليف: فتحي حسن ملكاوي

- موضوع الكتاب: ١- الفكر الإسلامي
٢- البناء الفكري
٣- التفكير
٤- خرائط الأفكار
٥- اللغة والأفكار
٦- المراكز الفكرية

ردمك (ISBN): ٧-٠٧-٦٤٠-٩٧٨-١-٥٦٥٦٤

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (٢٠١٦/٥/٢٠٦٣)

جميع الحقوق محفوظة للمعهد العالمي للفكر الإسلامي، ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي مسبق من المعهد.

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

The International Institute of Islamic Thought
P.O.Box: 669, Herndon, VA 20172 - USA
Tel: (1-703)471 1133, Fax: (1-703)471 3922
www.iiit.org/ iiit@iiit.org

مكتب الأردن - عمان

ص.ب ٩٤٨٦ الرمز البريدي ١١١٩١
هاتف: +٩٦٢٦٤٦١١٤٢١ فاكس: +٩٦٢٦٤٦١١٤٢٠
www.iiitjordan.org

النشر والتوزيع

مركز معرفة الإنسان للدراسات والأبحاث والنشر والتوزيع

عمان - الأردن

هاتف: +٩٦٢٩٠٧٠٠٧٩٧ فاكس: +٩٦٢٦٤٦٣٩٠٠٧

Email: majed_fawzi@hotmail.com



الكتب والدراسات التي يصدرها المعهد لا تعبر بالضرورة عن رأيه وإنما عن آراء واجتهادات مؤلفيها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المحتويات

٩ مقدمة
	الفصل الأول: مفهوم البناء الفكري وتطوره
١١	أولاً: الفكر في القرآن الكريم والسنة النبوية
١٣	ثانياً: الفكر في التراث الإسلامي
٢٠	ثالثاً: الفكر توحيد وتزكية وعمران
٢٢	رابعاً: الفكر إيمان وعلم وعمل
٢٩	خامساً: مصطلح الفكر الإسلامي
٣١	سادساً: الفكر والعاطفة
	الفصل الثاني: البناء الفكري ومستوياته
٣٦	أولاً: مفهوم البناء الفكري
٣٨	ثانياً: مراحل بناء الفكر ومستوياته
٤٣	ثالثاً: حوار العلم والفكر
٤٧	رابعاً: حركة الفكر وفكر الحركة
٥١	خامساً: المدارس الفكرية
	الفصل الثالث: البناء الفكري للمجتمع والأمة
٥٥	أولاً: الهوية الفكرية
٥٨	ثانياً: البناء الفكري بين الجمود والتجدد
٦٠	ثالثاً: تسويق الأفكار
٦٢	رابعاً: حاجة الأمة إلى القيادة العلمية والفكرية

الفصل الرابع: خرائط البناء الفكري الإسلامى

- ٧١ أولاً: خريطة مصادر البناء الفكري
٧٢ ثانياً: خريطة موضوعات البناء الفكري
٧٧ ثالثاً: خريطة أدوات البناء الفكري ووسائله
٨١ رابعاً: خريطة قياس البناء الفكري
٨٥ خامساً: خرائط تاريخ الأفكار
٨٦ سادساً: خرائط الفكر الجغرافي، وجغرافية الفكر
٨٩ سابعاً: ضوابط قبول الأفكار

الفصل الخامس: الفكر واللغة

- ٩٤ أولاً: البعد التاريخي لعلاقة الفكر واللغة
٩٦ ثانياً: البيان بين الفكر واللغة
٩٨ ثالثاً: نظريات العلاقة بين الفكر واللغة
١٠١ رابعاً: الفكر والترقى في المهارات اللغوية
١٠٤ خامساً: العبث الفكري واللغوي
١٠٥ سادساً: الكلام وحديث النفس
١٠٦ سابعاً: الازدواجية اللغوية والثنائية اللغوية وأثرهما في الفكر والثقافة والهوية

الفصل السادس: مراكز إنتاج الفكر، ومختبرات الأفكار

- ١١٢ أولاً: تطوير الأفكار بين الإبداع الفردي والعمل المؤسسي
١١٣ ثانياً: نشأة مراكز البحث واتجاهات عملها
١١٩ ثالثاً: البحث في موضوع مراكز البحث
١٢٥ رابعاً: مراكز البحث والإعلام
١٢٧ خامساً: مراكز البحوث في العالم العربي
١٣١ سادساً: قضايا المسلمين في مراكز البحث الغربية
١٣٣ سابعاً: تعريف ببعض مراكز البحث في العالم
١٣٧ خاتمة

المقدمة

ثمة تزايد ملحوظ في عدد الباحثين عن "كتابات فكرية" في أوساط الشباب المسلم في العقدين الأخيرين من الزمن، ويبدو أن من دوافع هذا البحث عند هؤلاء الشباب، أنهم أخذوا يضيّقون ذرعاً بالتوجّه العلمي - الفقهي، أو التوجّه الثقافي - الحركي، اللذين غلبا على جهود قطاعات واسعة من الشباب في الحقبة التي عُرفت بالصحوّة الإسلامية في الربع الأخير من القرن العشرين. وهذه الحقبة نفسها، هي كذلك الحقبة التي ظهر فيها عدد من المشاريع الفكرية في الدائرة الإسلامية، ولم يُعرَف بعض أصحابها في المؤسسات التقليدية للعلوم الإسلامية، ولم يعرفوا كذلك في الدوائر التقليدية للتنظيمات والحركات الإسلامية. وظاهرة الإقبال على "الكتابات الفكرية" هذه تطرح أسئلة متعددة عن الفكر، والمفكرين، والبرامج الفكرية، والمدارس الفكرية، وعن علاقة هذه المفاهيم والمصطلحات بما يتصل بها، ويقرب منها ويتقاطع معها.

والمنهج المعتمد في الكتاب لا يقدم تعريفاً محددًا "جامعاً مانعاً" لأيّ من المفاهيم التي تعرض لها. وإنما يعالج معاني المفهوم في سياق الحقل الدلالي الذي ينتسب إليه، ليتّسع همُّ القارئ للتعبير عن هذا فهمه واستيعابه بلغة حرة مفتوحة على التنوع في الصياغة اللغوية

والتنوع في زوايا النظر، وربما التنوع في صور الانفعال الوجداني. ومن عناصر المنهج عدم الحرص على ذكر أسماء الشخصيات الممثلة للتوجهات الفكرية التي يجري الحديث عنها، كذلك تجنباً لاقتحام البنية الفكرية للقارئ لملء فراغات هذه البنية بما يريد الكاتب.

وهذا الكتيب هو مختصر لكتاب "البناء الفكري مفهومه ومستوياته وخرائطه" للمؤلف نفسه، مؤملين أن تكون قراءة الملخص تيسيراً لبعض القراء على الإحاطة بمضامين الموضوع، ودافعاً لبعضهم الآخر لقراءة الكتاب الكامل. وقد احتفظ المختصر بهيكل الكتاب الأصلي من حيث الفصول والعناوين الفرعية لكل فصل، وأصبحت مادة النسخة المختصرة من الكتاب حوالي ثلث مادة الكتاب الأصلية. وجاء الاختصار في بعض التفاصيل والأمثلة والاقتراسات التي لا يقلل حذفها من أهميتها في الكتاب الأصلي.

والحمد لله رب العالمين

الفصل الأول:

الفكر في المصادر الإسلامية

مقدمة:

لعلّ من المناسب أن نبدأ الفصل الأول من هذا كتاب "البناء الفكري" بالتأكيد على أننا نتحدث عن الفكر الإسلامي، لذلك فإنّ مرجعيتنا في هذا الحديث هي المرجعية الإسلامية في مصادرها التأسيسية في القرآن الكريم والسنة النبوية أولاً، ثم في فهم علماء الإسلام عبر العصور للقرآن والسنة، وهو ما نسميه التراث الإسلامي. وحتى لا تنحصر دلالة الفكر إلى شيء مما جرى التأكيد عليه في التراث الإسلامي من انشغال القلب بتوحيد الله سبحانه والزهد بالدنيا، عن عمران الأرض بشريعة الله، وتحقيق الأمن والعدل فيها، جاء الاستدراك على بعض صور الفهم التي ربما توحى بها بعض نصوص التراث، للتأكيد على أنّ تلك النصوص كُتبت في ظل المجتمع المسلم، حيث كانت تتكامل فيه حقائق التوحيد والتركية والعمران، وكان لكلّ مجال من هذه المجالات رواده ومختصوه.

أولاً: الفكر في القرآن والسنة النبوية الشريفة

الفكر تعبير عن فعل يقوم به الإنسان، وهو اسم لثمرة هذا الفعل، وفكر يفكر تفكيراً؛ أي مارس نشاطه الذهني فهو مفكر، والمفعول مفكر فيه، والتفكير هو إعمال العقل في المعلوم للوصول إلى

مجهول، وفي القرآن الكريم وردت مادة الفكر في ثمانية عشر موضعاً في
خمس صيغ كلها في صفة الفعل، منها مثلاً:

- فَكَرَّ: الآية ١٨ من سورة المدثر.

- تَتَفَكَّرُوا: الآية ٤٦ من سورة سبأ.

- يَتَفَكَّرُونَ: إحدى عشر مرة، منها الآية ١٩١ من سورة آل
عمران، والآية ١٧٦ من سورة الأعراف.

وواضح أن التفكير بالتشديد لا يعني مجرد ورود الخواطر في
الذهن بالصورة المعهودة، وإنما يعني أيضاً الوعي والمتابعة والمعاودة،
كما يعني التفكير قرآنيًا التكامل في موضوع التفكير أي في الدنيا وفي
الآخرة، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ
وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ
لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ في الدنيا والآخرة وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ
إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ
اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ [البقرة: ٢١٩-٢٢٠]؛ أي ليحصل للأمة
تفكير وعلم في أمور الدنيا وأمور الآخرة.

ويمكن بعد الاستقراء لمعاني مادة الفكر في القرآن الكريم،
الخروج بعناصر تحدد معناه، هذه العناصر هي الآتي :

- عملية بذل الجهد الفكري، أو إعمال الفكر والعقل في أمور
معلومة لتحقيق أهداف وغايات محدّدة وجديدة.

- وهو عملية تتم بتكرار الانشغال بالهمم الفكري و معاودته ومواصلته حتى تتحقق النتائج المرجوة.

- وثمة مادة للتفكر، يلزم فيها استجماع الذهن والخاطر على عناصرها، وتفاصيل موضوعها ودقائقه.

- والمهم وهو نتيجة التفكر، وذلك هو تحقق الهدف المنشود، من إعمال الفكر، ومما ينطوي عليه الهدف الاعتبار أو أخذ العبرة.

أما في الحديث النبوي فقد ورد أيضا في مواقع كثيرة بألفاظ العقل والنظر والتدبر، منها الحديث النبوي الشريف، حديث ربيعة بن كعب الذي يرويه الإمام أحمد في مسنده يقول: "فَفَكَّرْتُ فِي نَفْسِي فَعَرَفْتُ أَنَّ الدُّنْيَا مَنْقَطَعَةٌ زَائِلَةٌ."

ثانيا: الفكر في التراث الإسلامي

ورد مصطلح الفكر والتفكر، في كثير من كتابات العلماء في التراث الإسلامي، وذلك بوصفه عملية ونتاج هذه العملية. ورد المصطلح في عناوين بعض مؤلفاتهم، نظراً لأن الجهد الذي كان يقوم به المؤلف إنما هو نتاج فكره في موضوع الكتاب، لكن ذلك لا يعني ذلك بالضرورة أن الفكر هو موضوع الكتاب التراث الإسلامي. لكن ثمة كتباً جعلت من الفكر موضوعاً لها، أو عقدت له أبواباً في مصنّفاتهما، يجدر بنا أن نعرف كيف فهمت الفكر، وكيف بينت دلالاته، وأرسمت خريطة لبنائه وتنميته.

وسوف نكتفي بالإشارة إلى ثلاثة من أهل العلم بينهم أزمان متباعدة، ولكل منهم نشأته ومدرسته وظروفه، ومع ذلك فإن عرضهم لقضايا العقل والتفكير تكاد تكون متطابقة. وهؤلاء هم: الحارث المحاسبي (توفي: ٢٤٣هـ)، الذي تحدث عن العقل ومعانيه واختلاف الناس فيه، وذلك في كتاب: «العقل وفهم القرآن»،^(١) وأصبح هذا الكتاب منهجه في كتاباته الأخرى. وثانيهم أبو حامد الغزالي (توفي: ٥٠٥هـ)، الذي كتب فصلاً نفسياً بعنوان "كتاب التفكير" وهو الكتاب التاسع من ربع المنجيات من إحياء علوم الدين. وثالث الثلاثة هو ابن قيم الجوزية (توفي: ٧٥١هـ) الذي خصص كتاباً كبيراً في العلم والتفكير هو كتاب: «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة». ونلاحظ أن بين الأول والثاني نحو قرنين ونصف من الزمان، وبين الثاني والثالث نحو قرنين ونصف كذلك.

واحد من كتب الإمام المحاسبي المنشورة، كان بعنوان كتاب «العقل وفهم القرآن»، وهو في الأصل كتابان، الأول: "ماهية العقل ومعناه واختلاف الناس فيه"، والثاني: "فهم القرآن ومعانيه". أما الأول فيبدو أن الحارث المحاسبي أوضح فيه موقفه من الجدل الذي كان يدور حول صحة الأحاديث المروية بشأن العقل، وذلك في ردّ فعل على ثقافة العصر الذي عاش فيه، وكان يُعدُّ عصر الاعتزال. وإذا

(١) المحاسبي، الحارث بن أسد. العقل وفهم القرآن، قدم له وحقق نصوصه: حسين القوتلي، دمشق: دار الفكر، ١٩٧١م.

كان المعتزلة ينوّهون بموقع العقل في الدين، ويستندون إلى أحاديث مروية عن العقل، فإن المحدثين بزعامة الإمام أحمد بن حنبل، يواجهون المعتزلة بإنكار صحة هذه الأحاديث. أما موقف المحاسبي الذي بدأ حياته محدّثاً، فرأى أنّ هذه الأحاديث تتفق مع دلالة الآيات القرآنية، وأن الصحابة والتابعين وتابعيهم رَوَوْا أقوالاً في العقل لا تخرج عن سياق تلك الأحاديث. وهو في طريقته - في هذا الكتاب الصغير في حجمه "العقل" - مثل طريقته في كتابه الكبير "الرعاية لحقوق الله"؛ إذ يبدأ بالقرآن الكريم، ثم بالسنّة النبوية، ثم بالآثار المروية عن الصحابة والتابعين، ويؤكد بناءً على ذلك ضرورة أن "يَعْقِل" المؤمن ما جاء في كتاب الله؛ أي أن يتقن فهمه وبيانه، ولذلك نجد عبارته عن فعل العقل تكاد تتكرر في كل فقرة من الكتاب "عَقَلَ عن الله... "الفهم والبيان يسمى عقلاً؛ لأنه عن العقل كان."^(١)

ويختتم المحاسبي كتاب العقل بتوضيح دلالة العقل ومعناه ومركزيته في عمل الفرد الإنساني، فيقول: "ولا غَنَاءَ بالعبد عن التفكير والنظر والذكر، ليكثر اعتباره ويزيد علمه، ويعلو في الفضل، فمن قلّ تفكُّره قلّ اعتباره، ومن قلّ اعتباره قلّ علمه، ومن قلّ علمه كثر جهله، وبان نقصه، ولم يجد طعم البرِّ، ولا برّد اليقين، ولا روح الحكمة. وما بلغ علمٌ من درس العلم بلسانه وحفظ حروفه بقلبه،

(١) المحاسبي، العقل وفهم القرآن، مرجع سابق، ص ٢٠٩.

وأصْرَبَ عن النظر والتذكر والتدبر لمعانيه وطلب بيان حدوده... وأيَّ سرور ظفِرَ به يعدلُ سرور العلم، وروح اليقين وعظيم المعرفة وكثرة الصواب، والظفرَ الذي لا يثبت ولا يُنال إلا بحسن النظر وطول التذكر وتكرار الفكر." (١)

وفي الحديث عن أثر الإمام المحاسبي في الفكر الإسلامي نكتفي بذكر ما رواه أبو حامد الغزالي في كتابه: «المنقذ من الضلال» من وقوعه في الحيرة والقلق، وسعيه للخروج منها باستقصاء ما عند الفرق التي كانت معروفة في عصره، بدءاً بكتابات المتكلمين، ثم الفلاسفة، ثم الباطنية، وأخيراً الصوفية، فأشار إلى أنه ابتداءً "بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل قوت القلوب" لأبي طالب المكي وكتب الحارث المحاسبي... " (٢) ومع أن أبا حامد لم يذكر الكتب التي قرأها للمحاسبي، فإن في كتاب المنقذ من الضلال كلاماً أشبه ما يكون بألفاظه ومعانيه بما جاء في كتابات المحاسبي، فضلاً عن الموضوعات الكثيرة التي طرقها الغزالي في «الإحياء» على نهج «الرعاية» للمحاسبي.

وقد عقد الغزالي في كتاب التفكّر من ربيع المنجيات من إحياء علوم الدين، كلاماً عن حقيقة الفكر وثمرته، وبيان مجاري الفكر

(١) المرجع السابق، ص ٢٣٥-٢٣٦.

(٢) الغزالي، حجة الإسلام أبو حامد. المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال، تحقيق: جميل صليبا وكامل عياد، بيروت: دار النفائس، ط ٧، ١٩٦٧م، ص ١٠٠-١٠١.

وبيان كيفية التفكّر في خلق الله تعالى،^(١) فالفكر هو المبدأ والمفتاح للخيارات كلّها، وعن الفكر تتولّد العلوم والمعارف، ولواحقها في الأحوال والأعمال، فالغزالي أراد أن يلفت النّظر أن الفكر هو مفتاح الدخول إلى ذات الإنسان، حيث يستحيل هذا الفكر بعد أن تستقيم مسائله، يستحيل علماً، هذا العلم ثمرته الأحوال في القلوب، وثمره هذه جميعاً الأعمال أو فعل الجوارح.^(٢)

وينقل أبو حامد الغزالي عن الحسن البصري قوله: "إن أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر، والفكر على الذكر حتى استنطقوا قلوبهم فنطقت بالحكمة."^(٣)

ولا يختلف ابن القيم الجوزية عن أبي حامد الغزالي في التأكيد على قيمة العقل وفضيلة التفكر وبيان فوائدهما على الإنسان، وابن القيم لا يرصد مراحل التّفكر إلا لأجل هدف أخلاقي؛ هو صلاح الإنسان وإمساكه بفكره كي لا يضل به خارج ما أمره الله به، لأن الخير والسعادة جمعتا في خزانة مفتاحها التفكّر. ويعدد لنا خمسة أمور عليها مدار التّفكّر، هي تواليّاً: "الفكر وثمرته العلم، وثمرتها الحالة التي

(١) الغزالي، حجة الإسلام أبو حامد. إحياء علوم الدين، وبذيله المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار، بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠٠٤م، ج ٥، ص ٣-٣٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٧-٨.

(٣) المرجع السابق، ص ٥-٦.

تحدث للقلب، وثمره ذلك الإرادة، وثمرتها العمل... فالفكر إذن هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها، وبالجملة فاصل كل طاعة إنما هو الفكر، وكذلك أصل كل معصية إنما يحدث من جانب الفكرة.^(١)

ومن اللافت للانتباه أن تقسيمات ابن القيم لموضوع التفكير تكاد تتطابق مع تقسيمات أبي حامد الغزالي، لكنها أكثر تفصيلاً، بل إن كثيراً من الاقتباسات التي ضمّنها ابن القيم مادة كتابه "مفتاح دار السعادة" من أقوال السابقين، هي الاقتباسات نفسها التي كان الغزالي قد ضمّنها كتابه "إحياء علوم الدين"، رغم ما بين العالمين الجليلين من زمن يتجاوز قرنين ونصف القرن، وعلى ما بينهما من اختلاف في الانتماء الفقهي والتوجه الكلامي والفلسفي.

ويعود ابن القيم إلى الحديث عن التفكير في كتاب آخر له لا يقل أهمية عن كتاب «مفتاح دار السعادة»، ذلك هو كتاب «الفوائد» وفيه يتحدث بقدر من التفصيل كذلك عن علاقة الأفكار والأفعال وما بينهما من عمليات تحوّل وتطوّر في ذات الإنسان، فيقول: "مبدأ كل علم نظري وعمل اختياري هو الخواطر والأفكار، فإنها توجب التصورات، والتصورات تدعو إلى الإرادات، والإرادات تقتضي وقوع الفعل، وكثرة تكراره تعطي العادة، فصلاح هذه المراتب بصلاح الخواطر والأفكار،

(١) ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب. مفتاح دار السعادة ومنتشور ولاية العلم والإرادة، تحقيق: عبد الرحمن بن حسن بن قائد، الرياض: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م، ص ٥٦٢.

وفسادها بفسادها." (١)

ويميز ابن القيم بين التذكّر والتفكّر فيقول: "التفكّر والتذكّر أصل الهدى والفلاح وهما قطبا السعادة،... فأعلم أن التفكّر طلبُ القلب ما ليس حاصل من العلم من أمر هو حاصل منها، هذا حقيقته، فإنه لو لم يكن ثمَّ مراد يكون مورداً للفكر استحال الفكر؛ لأن الفكر بغير متعلق متفكر فيه محال، وتلك المواد هي الأمور الحاصلة، ولو كان المطلوب بها حاصلاً عنده لم يتفكر فيه، فإذا عرف هذا فالتفكّر ينتقل من المقدمات والمبادئ التي عنده إلى المطلوب الذي يريده، فإذا ظفر به وتحصل له تذكر به وأبصر مواقع الفعل والترك، وما ينبغي اجتنابه. فالتذكر هو مقصود التفكّر وثمرته ... فإذا تذكّر عادَ بتذكّره على تفكّره ما دام عاقلاً؛ لأنَّ العلم والإرادة لا يقفان على حد بل هو دائماً سائر بين العلم والإرادة. وإذا عرفت معنى كون آيات الرب تبارك وتعالى تبصرة وذكرى يتبصر بها من عمى القلب، ويتذكر بها من غفلته فإنَّ المضاد للعلم، إما عمى القلب وزواله بالتبصّر، وأما غفلته وزواله بالتذكّر." (٢)

إن الحديث عن الفكر في التراث الإسلامي لا يقتصر على ما أورده هؤلاء العلماء الثلاثة؛ إذ يندر أن نجد مؤلفاً في كتب العقيدة

(١) ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب. الفوائد، القاهرة: مكتبة الجامعة، ط ٤، ١٩٨٠م، ص ٢٢٨.

(٢) ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، مرجع سابق، ص ٦٠٦-٦٠٧.

والكلام، أو كتب الفقه والأصول، أو كتب التفسير، فضلاً عن كتب التزكية والتصوف لا يتحدث عن الفكر والتفكير والتذكر والتدبر والتعقل والنظر والاعتبار، وغير ذلك من المسميات التي تحيل إلى الفكر الإنساني.

ثالثاً: الفكرُ توحيدٌ وتزكيةٌ وعمران

من المفيد أن نستدرك على ما قد يسبق إلى الخاطر من فهم كلام المحاسبي والغزالي وابن القيم وغيرهم من العلماء الذين عرفوا بكتاباتهم عن التزكية، وذلك بالتأكيد على أنّ عمليات التعقل والتفكير والتذكر التي يقوم بها الإنسان، من أجل الاتصاف بالتقوى، والزهد في الدنيا، والإقبال على الآخرة، لا تعني بالضرورة عدم الأخذ بنصيب الإنسان من الدنيا، فمجالسة العلماء وحضور دروسهم، والرحلة إليهم طلباً للعلم، والسعي في مناكب الأرض، طلباً للأكل من رزق الله، وإتقان متطلبات المهنة في الحياة، من تجارة وزراعة وحرفة، كل ذلك من نصيب الدنيا، وكلُّه يتطلب تعقلاً وتفكيراً وتذكراً، فضلاً عما يلزم المؤمن من التفكُّر والتذكر في ثواب المجاهدين في سبيل الله والمرابطين على الثغور، والنفرة في هذا السبيل. ونستطيع أن نجد في نصوص العلماء الثلاثة الذين أشرنا إليهم ما يؤكد عدم غفلتهم عن التفكير في متطلبات العمران في الدنيا.

فالتدبر للآيات القرآنية بصورة عامة وللتفكير في الآيات الكونية منها، والاعتبار من قصص العابرين، كل ذلك يهدف إلى أن يقود في

نهاية المطاف إلى الإيمان بالخالق؛ بوحدانيته وأسمائه وصفاته، ومن ثم السعي الحثيث في تزكية النفس بطلب رضوان هذا الخالق الواحد، وتجنب سخطه. ولكن ما الذي يحصل في الطريق إلى هذه النهاية، وأثناء السعي، وقبل الوصول؟! كيف لا يقود طول التفكُّر والاعتبار والتدبر، أثناء ذلك السعي إلى بناء الفكر والعلم والفهم والاكتشاف؟ ومن أين تأتي السنن والقوانين والنظريات، إذا لم تكن صياغات علمية لذلك العلم والفهم والاكتشاف وما يلزم ذلك من قياس وتجريب؟!

وما قيمة هذه العلوم والاكتشافات إن لم يصاحبها تطبيقات عملية ومنافع حقيقية تيسر للسالكين سبل السعي في هذه الحياة الدنيا على هذه الأرض، وحمل الأمانة في الدنيا، والقيام بحق الخلافة في الأرض، وإدراك الدلالات العملية لآيات التسخير، والتبصُّر في آيات التمكين؟

فالتجارة والصناعة والزراعة وسن القوانين والتشريعات، التي تضبط الأمن وتحمي الطريق، وتنظيم تفاصيل العلاقات بين الأفراد والجماعات والدول.. وإدارة أمور الاجتماع والاقتصاد والسياسة... كل ذلك علوم نافعة، لماذا لم يسبق إليها المؤمنون بالآخرة وهم في طريقهم إليها يتفكرون ويتدبرن؟ ألم يكن بالإمكان أن تنمو هذه العلوم وتكون امتداداً للبذور التي زرعها السابقون من العلماء في أبواب فقه المعاملات؟

لو تحقق الجمع بين التوحيد والتزكية والعمران، سوف تصبح الآيات الكونية، والآيات النفسية، والآيات الاجتماعية، والآيات التاريخية، وكل آيات القرآن الكريم عناوين لموضوعات التفكير والتدبر والاعتبار، وموضوعات للمشاريع البحثية المتعمقة التي توسع فضاءات العلم يوماً بعد يوم. وتجعل الأمة المسلمة في موقع الخيرية والقيادة والريادة.

ومن ناحية أخرى يكون من المفيد كذلك أن نشير إلى التعقل والتفكير والتذكر، كما يقوم به المؤمن، طلباً لما يريده من شؤون الدنيا والآخرة، يقوم به غير المؤمن كذلك، طلباً لما يريده من العلم في ظاهر الحياة الدنيا، وبعض الناس يصل بهم إتقان عمليات التفكير في فنون العلم إلى حدّ العجب.

رابعاً: الفكرُ إيمانٌ وعلمٌ وعملٌ

إذا كان الإسلام في جوهره : إيمان وعلم وعمل، فأين موقع الفكر من هذه المفاهيم الثلاثة؟

لقد أكد علماء الإسلام من خلال النماذج التي أوردنا، على أهمية الفكر وقيّمته المصيرية بالنسبة للإنسان، وتبين لنا أنّ الفكر هو عنصر أساس في هذه الثلاثة. ونذكر في المقام مرة أخرى بنص ابن القيم: "مبدأ كلِّ علمٍ نظريٍّ وعمليٍّ اختياري هو الخواطر والأفكار؛ فإنّها تُوجِبُ التصوّرات؛ والتصوّراتُ تدعو إلى الإرادات؛ والإراداتُ

تَقْتَضِي وقوعَ الفِعلِ؛ وكثرةُ تَكَرُّرِهِ تُعْطِي العادةَ؛ فَصَلَّاحُ هذه المَرَاتِبِ بِصَلَّاحِ الحَوَاطِرِ والأفْكَارِ، وفسادُها بِفسَادِها. ^(١) ولعل النظر في الاقترانات القرآنية بين مفاهيم الإيـان والعلم والعمل يسهم في فهم موقع الفكر في هذه المفاهيم الثلاثة.

١ - اقتران الإيـان والعلم:



إن التَّلازم بين الإيـان والعلم في الإسلام هو في الحقيقة تلازم بين الإيـان والفكر، فبواسطة الفكر يتم معرفة آيات الله، واكتساب اليقين بصدقها وحقيقتها، ودون تفكُّر في

آيات الله يكون الإيـان إيـاناً وراثياً لا إيـاناً ذاتياً. يحتاج الإنسان من أجل العمل بمقتضيات الشريعة إلى تذكُّر عناصرها، وتدبُّر مضامينها، والاعتبار بقصصها وبتاريخ الإنسانية المبعوث فيها. وفي الرؤية الإسلامية يحمل العلم مفهوماً واسعاً، وذلك انسجاماً مع شمولية التفكير من منظور الرؤية الإسلامية، فالعلم الذي يورثه التفكير يكون علماً بالأشياء وهي العلوم الطبيعية والمادية، ويكون علماً بحقائق السلوك والنفس والمجتمع، وهي العلوم الإنسانية والاجتماعية، ويكون علماً بمسائل العقائد والإيـان، وهي علوم الشريعة. وكلها يمكن أن تكون علوماً نافعة.

(١) ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب. الفوائد، تحقيق محمد عزيز شمس، مكة المكرمة: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، ١٤٢٩هـ، ص ٢٥٢-٢٥٣.

وقد أعلَى اللهُ سبحانه من قيمة العلم النافع وحث عليه وفضل العلماء، وذكر كيف أنّ الله سبحانه فضّل بعض من اصطفاهم من الناس بعلم نافع، فكانت قيمة العلم ومنفعته عندما يوظّف العالمُ علمه في عمَل مفيد؛ فذو القرنين يوظّف علمه في الهندسة وال عمران وعلوم المعادن، ليَبني جداراً منيعاً يَحْمِي أولئك الضعفاء بين السدين من فساد يأجوج ومأجوج، ونَبِيُّ الله يوسف عليه يوظّف بعلمه في الاقتصاد والتموين برنامجاً اقتصادياً يَحْمِي به الشعوب التي كانت تسكن مصر والمناطق المجاورة من المجاعة، ونَبِيُّ الله نوحٌ عليه السلام يوظّف ما علّمه الله سبحانه من علم، فيبني بعلمه في النجارة سفينة ضخمة تنقذ من آمن معه، وتبقي على أصناف الكائنات التي تحتاجها البشرية من أن يهلكها الطوفان. ومثل هذه القصص الكثيرة في القرآن الكريم دعوة إلى الأخذ بأسباب العلم، فهو متاح لمن يطلبه ويجتهد في اكتسابه.

ويخطئ من يظنّ أنّ الفكر والثقافة مجال خاص لاهتمام فئة من الناس، تختلف عن فئة أخرى تشغل بقضايا الإيمان، وكأنّ صاحب الفكر ليس مطلوباً أن تظهر عليه مظاهر الإيمان والخلق وحسن السلوك، أو كأنّ المؤمن التقي الذي يكثر من العبادة ويقل طمعه في الدنيا هو إنسان جاهل لا علّم عنده، ولا فكر له ولا ثقافة.

٢- اقتران الإيمان والعمل:

في القرآن الكريم إحدى وخمسون آيةً يقترن فيها الإيمان بالعمل الصالح، اقتراناً لفظياً، مثل قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا

الصَّلِيحَاتِ لِيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴿ [النور: ٥٥]. والمعنى الشرعي المعروف للإيمان عند العلماء أنه قول باللسان، وتصديق بالجنان، وعمل بالأركان. أو هو نظر وعمل، فبالنظر يتحقق العلم والفكر، وبالعمل تتحقق الاستجابة لمتطلبات النظر من سلوك وممارسة. إن اقتران "الذين آمنوا وعملوا الصالحات" في القرآن الكريم جاء في غالب المواضع بصيغة الجمع: فالذين آمنوا جماعة، والذين عملوا الصالحات جماعة، فالجماعة المؤمنة توحدت على رؤية علمية، ثم جاءت أعمالها الصالحة وفقاً لتلك الرؤية، وفي ذلك دلالة مهمة في تحقيق النهوض الحضاري للأمة، فتحقيق ذلك هو شأن الجماعة والأمة، ومن ثم بناء تصور مشترك بين أفراد الجماعة والأمة، وهذا التصور هو الإيمان الذي هو منطلق للعمل الصالح.

٣- اقتران العلم بالعمل :

لا خلاف على أن مفهوم "العبادة" في الإسلام يتسع ليشمل كل الأفعال الاختيارية التي يقوم بها الإنسان طلباً للأجر والثواب والتقرب من الله سبحانه، وتنفيذاً للأحكام والشرائع التي جاء بها دين الله. ومعرفة ما يكون به الفعل تقرباً إلى الله - وليس شهوة نفسية أو بدنية- يحتاج إلى علم، ومعرفة أحكام الله وشرائعه لتنفيذها يحتاج إلى علم. ولذلك تحدث العلماء عن "اقتضاء العلم العمل"^(١) وعن تلازم العلم والعمل؛ إذ إن "العبادة ضربان: علم وعمل. وحقهما أن

(١) الخطيب البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت. اقتضاء العلم العمل، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، دمشق: المكتب الإسلامي، ١٩٨٤م.

يتلازما، لأنَّ العلمَ كالأسِّ والعملَ كالبناء، وكما لا يغني أسُّ ما لم يكن بناءً، ولا يثبُتُ بناءً ما لم يكن أسًّا، كذلك لا يغني علمٌ بغير عمل ولا عملٌ بغير علم." (١) وأوضح من ذلك تصريح النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنَّ العملَ علمٌ، فعن أنس بن مالك رَحِمَهُ اللهُ: "قال: جاء رجل إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله، أي الأعمال أفضل؟ قال: "العلم بالله عز وجل". قال: يا رسول الله، أي الأعمال أفضل؟ قال: "العلم بالله". قال: يا رسول الله، أسألك عن العمل، وتخبرني عن العلم؟ فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إن قليل العمل ينفع مع العلم، وإن كثير العمل لا ينفع مع الجهل." (٢)

إن اقتران العلم والعمل شبيه باقتران الإيمان بالإسلام، فالإيمان من جنس العلم، والإسلام الظاهر من جنس العمل، لذا فإن "الإيمان هو الإذعان إلى الحق: على سبيل التصديق له واليقين، ولهذا وصف الله الإيمان والعلم بوصف واحد فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]، ووجل القلب هو الخشية للحق على سبيل التصديق

(١) الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل. تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٨٣م، ص ٨٥-٨٦.

(٢) ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد البر. جامع بيان العلم وفضله، تحقيق: أبو الأشبال الزهيري، الدمام: دار ابن الجوزي، ط ١، ١٩٩٤م، باب: جمع في فضل العلم، ج ١، حديث رقم ٢١٤، ص ٢٠٢.

باليقين، هذا أصل الإيمان.^(١)

٤ - الأفكار والبرامج:

خلاصة القول في علاقة الفكر بالإيمان والعلم والعمل إن الفكر عنصر أساس في هذه المفاهيم الثلاثة. وقد لاحظنا أن العلم بمدلوله القرآني يتسع ليشمل: العلم بالأشياء، والعلم بالسلوك، والعلم بالعقائد، أما الفكر فيشتمل على تصورات ثلاثة: فهو نظر استدلالي ينتقل من المعلوم إلى المجهول، ونظر تقويمي يبحث في الأشياء من جهة انتفاع الإنسان بها، ونظر استشرافي يبحث في العواقب والآلات. "ويترتب على هذا أن وجه الصلة بين العلم والفكر هو كالتالي:

أ- أن العلم يحتاج إلى الفكر لكي يحصل مشروعيته، فالعلم لا يكون مشروعاً حتى يكون نافعاً، ولا يكون نافعاً حتى يحمل في طياته فكراً، وما يطلق عليه اسم العلم النافع، إنما هو العلم الذي يزدوج بالفكر.

ب- أن الفكر يحتاج إلى العلم لكي يحصل مصداقيته، فالفكر لا يكون صحيحاً حتى يكون حقيقياً، ولا يكون حقيقياً حتى يحمل في طياته علماً. وما يُدعى باسم الفكر الصحيح، إنما هو

(١) الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل. الذريعة إلى مكارم الشريعة، تعليق: محمود بيجو، دمشق: دار اقرأ، ٢٠٠١م، ص ١٢٦.

الفكر الذي يزدوج بالعلم. ^(١)

أما علاقة الفكر بالعمل فيلخصه الراغب الأصفهاني في حديثه عن أقسام الفعل، والفعل عنده أشمل من العمل، على الوجه الآتي: "الفعل الإنساني ثلاثة أضرب، نفساني فقط، وهو الأفكار والعلوم وما ينسب إلى أفعال القلوب، وبدني وهو الحركات التي يفعلها الإنسان في بدنه كالمشي والقيام والعود. وصناعي وهو ما يفعله الإنسان بمشاركة البدن والنفس كالحرف والصناعات." ^(٢) ومن البدهي أن الأفكار والعلوم التي تقوم القلوب بفعلها هي التي تحفز الإنسان على الفعل البدني، بما فيه من مقتضيات الإيمان والطاعة وحسن الخلق، كما تحفزه على الفعل الصناعي الذي يقتضي إتقان المهن والصناعات المفيدة والقيام بخدمة الناس بما تقتضيه حياتهم.

فالعلم يثمر الإيمان، ويتبع الإيمان عمل وتطبيق، فعندما يعلم الذين أوتوا العلم أن هذا القرآن هو الحق الذي أنزله الله سبحانه، يؤمنوا أو يثبتوا على الإيمان وتخضع قلوبهم وتطمئن. وبذلك يستحق هؤلاء المؤمنون أن يهديهم الله إلى الصراط المستقيم في دينهم ودنياهم، وذلك قوله سبحانه: ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ

(١) عبد الرحمن، طه. سؤال العمل: بحث عن الأصول العلمية في الفكر والعلم، الدار البيضاء وبيروت: المركز الثقافي العربي، ٢٠١٢م، ص ٣٠٨.

(٢) الراغب الأصفهاني، الذريعة إلى مكارم الشريعة، مرجع سابق، ص ٣٠٤.

فَتَحَّتْ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ [الحج: ٥٤].

خامسا: مصطلح الفكر الإسلامي

مصطلح "الفكر الإسلامي" مصطلح حديث انتشر استعماله في القرن العشرين على وجه الخصوص، لتمييز ما يريده المفكرون المسلمون بديلاً أصيلاً عما أخذ ينتشر بين المسلمين من عناصر الفكر الغربي الوافد. ولم يعرف هذا المصطلح في التراث الإسلامي بهذا اللفظ، على الرغم من أن مفهوم الفكر والتفكر في القرآن الكريم والتراث الإسلامي، مفهوم عريق وممتد على مساحة الزمن.

لقد غلب على ما نسميه اليوم "الفكر الإسلامي" في الكتابات المبكرة في التاريخ الإسلامي استعمال مصطلحات أخرى مثل العلم والفقهاء. وهي مصطلحات سبقت إلى ميدان التدوين والتأليف. فكان الفقه في الدين يعني مطلق الفهم قبل أن يصبح مصطلحاً على علم مخصوص. ومع ذلك فقد عُرف من أهل العلم من الصحابة من تميّز بعلم من العلوم دون غيره، فكان أعلم الصحابة بالفرائض زيد بن ثابت، وكان أعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وهكذا. وقد عرف تاريخ الإسلام عبر القرون نماذج من العطاء الفكري الإبداعي في ميادين العلوم المختلفة، نذكر منها:

- الجاحظ في القرن الثاني الذي كتب في الفكر الاقتصادي،

- والحرث المحاسبي في القرن الثالث الهجري الذي كتب في

الفكر النفسي،

- والقاسبي في القرن الرابع الذي كتب في الفكر التربوي،
- والماوردي في القرن الخامس الذي كتب في الفكر السياسي،
- والزرنجي في القرن السادس الذي كتب في الفكر التربوي،
- وابن خلكان في القرن السابع الهجري الذي كتب في الفكر التاريخي،
- وابن خلدون في القرن الثامن الذي كتب في الفكر الاجتماعي والعمران البشري.

لكن بعض أهل العلم في الدائرة الإسلامية من لا يرتاح للحديث عن الفكر الإسلامي، مفضلاً الحديث عن العلوم الإسلامية في أطرها التقليدية التي ظهرت في القرون الخمسة الأولى. وسوف نجد من يرى أنَّ العلم هو العلم الشرعي الذي تخصص فيه، وغيره من العلوم تبع له، وسوف نجد أن كثيراً من هؤلاء يرون مصطلح الفكر هو نكوص عن العلم الحقيقي، وأنَّ التركيز على الفكر الإسلامي القائم على النقد العقلي والنظر المقاصدي، هو استخفاف بالنصوص وهروب من استحقاقاتها.

ومع كل هذا التحفظ لدى فئات من أهل التخصص في علوم الشريعة التقليدية، فإنَّ نماذج من المؤلفين والكتاب والنشطاء لا يُشك

في انتسابهم الإسلامي، ومرجعيتهم الإسلامية، وجهودهم في "الجهاد الفكري" وتضحياتهم من أجل رفعة شأن الإسلام، أنجزوا إنجازات مقدّرة من العطاء العلمي والفكري والعملي، وجاءوا من تخصصات متنوعة، فكان منهم عسكريون محترفون، وكان منهم مهندسون وأطباء، وعلماء من تخصصات الكيمياء والفيزياء وعلم النفس وغير ذلك. لكن من الإنصاف أن نشير إلى أن بعض من عُرف في ميدان الفكر الإسلامي، أو حاول أن يعرّف بنفسه في هذا الميدان، كانوا دخلاء على الفكر الإسلامي، وأشعلوا في ميدانه معارك استغرقت كثيراً من الجهد والوقت، وربما كانت جهود بعضهم ناتجة عن اجتهادات خاطئة، ومحاولات مخرّبة يفتقرها العلم، ولكن بعضها الآخر كان عملاً مدبراً مكرراً، يقصد به الإسهام في إحداث البلبلة والفضوض الفكرية في المجتمعات الإسلامية.

سادساً: الفكر والعاطفة

إن البناء الفكري ليس جدلاً فكرياً جافاً، خالياً من العاطفة والمشاعر، وإنما هو إيمان يدفع إلى العمل، إنّه حالة عقلية ووجدانية تنبثق عنها أشكال من السلوك والتعامل مع الأفكار والأشياء والناس. وإذا كان الفكر هو وَعْيُ الإنسان بذاته وبالمحيط من حوله، فإنّ مشاعر الإنسان هي عنصر أساس من عناصر الذات البشرية، فالوعي على هذه المشاعر لا يقل أهمية عن الوعي بالعلم والمعرفة

اللازمة لاتخاذ القرار المناسب، أو القيام بعمل محدد.

هل الأفكار مجردة عن المشاعر، وهل يمكن تجريدُها عنها، وهل

ثَمَّةُ مصلحةٌ في أن يحدث هذا التجريد لو أنه كان ممكناً؟!

عندما نَحْكُمُ على فكرة ما بأنها جيدة أو سيئة، وعندما تُقَرَّرُ أن

تلك الفكرة تتَّصف بأنها إيجابية أو سلبية، ألا يعني ذلك أنك تجيب

عن سؤال: كيف تَشْعُرُ إزاء تلك الفكرة؟!

عندما يكون عليك أن تقوم بعمل من الأعمال، ألا تَشْعُرُ بفرق

كبير، بين أن تُفَرِّضَ عليك فكرة معينة لتقوم بذلك العمل بموجبها،

وأن تَحْتَارَ بنفسك تلك الفكرة؟!

روى البخاري في الصحيح أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "لا

يُقْضِيَنَّ حَكْمٌ بين اثنين وهو غضبان" ^(١) وهذا الحديث الشريف أساس

في فهم العلاقة بين الفكر والعاطفة. وروى الأمام أحمد في الموضوع

نفسه قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ." ^(٢)

(١) البخاري، محمد بن إساعيل. صحيح البخاري، دمشق: دار ابن كثير، ٢٠٠٢م. "حدثنا

آدم حدثنا شعبة حدثنا عبد الملك بن عمير سمعت عبد الرحمن بن أبي بكره قال: كتب

أبو بكره إلى ابنه - وكان بسجستان - بأن لا تقضي بين اثنين وأنت غضبان، فإن سمعت

النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: "لا يقضين حكم بين اثنين وهو غضبان." كتاب: الأحكام،

باب: هل يقضي القاضي أو يفتي وهو غضبان، حديث رقم ٧١٥٨، ص ١٧٦٨.

(٢) أبو داود، سليمان بن الأشعث. سنن أبي داود، بيروت: دار الجيل، ١٩٩١م، كتاب:

الطب، باب: في الهوى، حديث رقم (٥١٣٠) عن أبي الدرداء، ج ٤، ص ٣٣٦.

ويرى مالك بدري أن الحالة الانفعالية هي أحد الأبعاد المؤثرة في تفاوت الأفراد في درجة التفكّر، "فالتفكّر يحتاج إلى الطمأنينة والهدوء النفسي والصحة الجسمية والنفسية... وهناك العديد من الأبحاث التجريبية التي تؤكد أن التركيز الذهني وحل المشكلات، يضعف مع ازدياد التوتر والقلق." وتكون الحالة النفسية أحياناً حالات مرضية واضحة، فالعصابيون مثلاً تكون قدرتهم على التفكير والتدبر ضعيفة، والذين ابتلاههم الله بالذهان أو الجنون أو التخلف العقلي أو بذهان الشيخوخة (الحزن) لا يستطيعون التفكّر والتدبر.^(١)

(١) بدري، مالك. التفكر من المشاهدة إلى الشهود: دراسة نفسية إسلامية. هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط ٣، ١٩٩٣ م، ص ٩٠-٩١.

الفصل الثاني:

البناء الفكري ومستوياته

مقدمة:

يتخصص هذا الفصل الثاني بالحديث عن البناء الفكري، وتمثلاته في الاصطلاحات المعاصرة. وينظر إلى البناء الفكري، بوصفه "عملية" تتم وفق تصور معين، وتمر بمراحل متتابعة، وتصل إلى مستويات متعددة، يكون كل مستوى منها علماً على شخصية من الشخصيات المعروفة في الثقافة المعاصرة، فهناك المفكر، والمثقف، والعالم، والداعية، والمصلح، والفيلسوف، ولكل منهم بناؤه الفكري. كما ينظر الفصل إلى البناء الفكري بوصفه تغيراً في الزمان، وحركة في المكان، وهو وصف للفرد ووصف للجماعة، ووصف للأمة، ولذلك تناولنا بالمعالجة العلاقة بين حركة الفكر وفكر الحركة، وتحديثنا على البنى الفكرية للحركات والمدارس الفكرية وما يميز كلاً منها عن غيرها.

وقد شهد التاريخ الإسلامي استخداماً مكثفاً لمصطلحات مثل العلم والفقهاء، بصورة تجعل بعض الناس ينفرون من استخدام مصطلحات أخرى مثل مصطلح الفكر مؤشراً على قيمة العطاء الذي يحمله الفرد أو الجماعة، ولذلك جرى التأكيد على أننا لا نود أن نجعل

هذه المصطلحات متقابلة وبديلة لبعضها بعضاً. فالسياق هو الذي يحدد المصطلح المناسب، ولكل مصطلح قيمته والمقام الذي يصلح له أكثر من غيره، وسوء الاستخدام يمكن أن يقع على أي مصطلح.

أولاً: البناء الفكري، بناء لكنه في الفكر

البناء الفكري؛ كلمتان مفتاحيتان في النشاط البشري، كل منهما مصدر لفعل، وكل منهما يشير إلى الفعل وإلى نتيجة ذلك الفعل؛ فالفكر موضوع يتم بناؤه، والبناء عمل موضوعه الفكر. والعمل بالفكر من أشرف الأعمال، والفكر لا يدخل إلى الإنسان جسماً كاملاً، ولا يأخذه الفرد ممن يعطيه إياه كتلة كاملة، لتنتقل ملكيته من المَعْطِي إلى الآخِذِ، إنما يَبْنِيهِ الإنسان بناءً، لبنه بعد أخرى.

مفهوم البناء يصاحبه التخطيط والتصميم والتنظيم، ويقابله التكديس والتجميع العشوائي، ومفهوم الفكر يصاحبه العلم في تَمَكُّن، والثقافة في إحاطة، والوعي في رشد، ويقابله تقليد بلا علم، وتبعية بلا هدى، وتعصب أعمى دون نظر، فالذي لا يملك فكراً يقوم بما يقوم به من أعمال انقياداً لهوى متَّبِع، سواءً كان هوى نفسه، أو هوى غيره.

والفكر هو نتاج عملية التفكير، وعملية التفكير نشاطٌ ذهني داخلي يقوم به الإنسان بصورة واعية أو غير واعية، وهذه العملية تتضمن مرور الخواطر والتخيلات والمدركات الحسية أو الانفعالية،

التي تسبق أو ترافق قيام الإنسان بأي سلوك أو تصرف خارجي. لذلك فالفكر جهد بشري يلحقه الصواب والخطأ، فلا يتصف بالعصمة ولا القداسة. وبقدر ما يكون هذا الفكر مستنداً إلى نقلٍ صحيحٍ وعقلٍ صريحٍ، ومنسجماً مع الطباع والوقائع، يكون الفكر أقرب إلى الصواب وأبعد عن الخطأ.

ويميز عالم النفس الإسلامي مالك بدري بين التفكير بوصفه عملية مرور الخواطر في الذهن البشري بصورة تقليدية عادية، والتفكير الذي عدّه منزلة أرقى من التفكير، فهو جهد مقصود للوصول إلى الحقيقة في أمر يطلب الإنسان إدراكه، وذلك عن طريق تعقل الأمر، وتصرف القلب، وطلب الدليل والتأمل فيه. والتذكر نوع من التفكير يتضمن استحضار الذهن ما كان يعلمه الإنسان عن الموضوع، وما يقابله ويقاربه فلا يغفل، وليكون التذكر موعظة وتبصرة. أما التدبّر، فإنّه يتجاوز كل ذلك إلى النظر في عواقب الأمور.^(١)

(١) بدري، التفكير من المشاهدة إلى الشهود: دراسة نفسية إسلامية، مرجع سابق، ص ٣٥-٤٧. ينصح بدراسة هذا الكتاب الصغير، ففيه بيان تفصيلي لعلاقة الفكر بالتفكير والتفكير والتدبر والتذكر، وهي دراسة تفصيلية تجمع إلى النصوص الدينية معطيات التراث الإسلامي وعلم النفس المعاصر ونظريات التعلم، وعلاقة التفكير باللغة، وعلاقة التفكير بما هو معروف عن الطريقة العلمية، في بحوث العلوم المادية والتطبيقية.



مخطط تمثيلي يوضح مصادر البناء الفكري وعملية البناء

ثانياً: مراحل بناء الفكر ومستوياته

يتعمق "مالك بدري" في قراءة مادة التفكر في التراث الإسلامي، ثم يستحضر حال الإنسان المؤمن في علاقته بالله عز وجل، ويستنتج من خلال ذلك وجود أربع مراحل يمكن أن يمر بها التفكر البشري.

يشترك سائر الناس من مؤمنين وغير مؤمنين في المرحلتين الأولى والثانية، وينتقل المؤمنون إلى المرحلة الثالثة، وينتقل بعضهم إلى المرحلة الرابعة، ولا يطلق "مالك بدري" أسماء محددة على المراحل الثلاثة الأولى، باستثناء المرحلة الرابعة التي يسميها مرحلة الشهود.

والجدول الآتي يوضع هذه المراحل ودلالاتها:

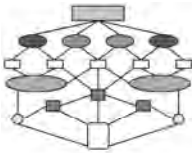
مراتب التفكير عند مالك بدري

مستوى التفكير	خصائص المستوى
الرابع: الشهود	حالة وجدانية يترقى صاحبها في التأمل والذكر والحب، حتى يستشعر حضوره مع الملاء الأعلى.
الثالث: الإيثار	من الإحساس بالجمال الكوني، إلى اكتشاف مبدع هذا الجمال، والاعتراف بعظمته وفضله.
الثاني: التذوق الوجداني	الانتقال من الوعي البارد بالعالم، إلى ازدواج الوعي بالإحساس بالجمال والإيقان.
الأول: الإدراك المادي	مدرجات حسية أو استحضار لوقائع حسية أو تحليل لمفاهيم نظرية

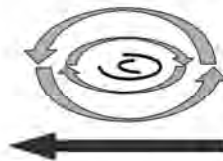
ومالك بن نبي فكرة لطيفة في التمييز بين البناء والتكديس، وذلك في حديثه عن البناء الحضاري؛ إذ يتحدث عن العالم الإسلامي الذي بقي دهرًا طويلًا خارج التاريخ، لكنه انتبه في نهايات القرن

التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، على صيحات إصلاحية تدعو إلى النهوض الحضاري، لكن جهوده في السعي إلى ذلك اكتفت باستيراده منتجات الحضارة من الآخرين، والحضارة في حقيقتها منتجات مادية لها روحها فكرها وأدواتها وأنظمتها، التي لا تباع ولا تعار؛ لأنّها تمثل الخصائص الذاتية للحضارة وللمجتمع الذي يبني تلك الحضارة، والمجتمع الذي يستورد المنتجات مع فكرها وروحها يكون قد فقد هويته الحضارية وأصبح امتداداً للمجتمع الذي استورد منه منتجاته، أما المجتمع الذي يستورد منتجات الحضارة دون روحها وفكرها، فإنه يقوم بتكديس هياكل لا روح لها، وتجميع أكوام من الأشياء لا فكر فيها.

إنّ الحضارة في كل مجتمع - في رأي مالك بن نبي - هي التي تلد منتجاتها، وتطبعها بروحها وفكرها، والعالم الإسلامي لم يتمكن من بناء حضارة، لأنّه اقتصر على تكديس المنتجات المادية.



بناء معرفي
منظم ومتكامل



عملية تنظيم
وبناء متكامل



حقائق وبيانات
جزئية متفرقة

من التكديس إلى البناء

وبناء الحضارة عند مالك بن نبي يتم وفق معادلة تتفاعل فيها
ثلاثة عناصر هي:

- الإنسان، بما يمثله من طاقات الفكر والإبداع.
 - والتراب (الأرض) الذي يمثل الإمكانيات المادية والاقتصادية.
 - والوقت (الزمن) الذي يتم فيه نمو الخبرة وإنضاجها.
- ولا يتم التفاعل بين هذه العناصر الثلاثة إلا بعامل مساعد هو
الشعلة الروحية (الدين) التي تتمثل بقوة العاطفة، وطاقة
الوجدان.^(١)



مكونات البناء الحضاري عند مالك بن نبي

لكن رغم مظاهر الانسجام في مستوى عالم الأفكار، إلا أن هذا
لا يعني أن عالم الأفكار نموذج واحد، ولا يعني أن صيغ التفكير
ومستوى المعرفة لها مسمى واحد، لأنّ ثمة أشخاص يحملون أوصافاً
فكرية وسلوكية متميزة، والجدول الآتي يوضح ذلك :

(١) ابن نبي، مالك. شروط النهضة، دمشق: دار الفكر، ١٩٨٦، ص ٦٣.

الأوصاف	الصِّنف
من يتخصص في علم معيّن سواء كان علماً مثل علم الاجتماع، أو فرعاً من فروع ذلك العلم، مثل علم الاجتماع الديني	المتخصص
من يتعمق في تخصصه، ويبدع فيه، ويضيف إليه، ويحل مشكلاته المتداولة بين المختصين.	العالم
قد يكون صاحب تخصص وعالمًا وقد لا يكون، وتكون له اهتمامات عامة لغوية أو فنية أو سياسية، يمتلكها نتيجة جهده الذاتي في البناء، عن طريق القراءات والمحاورات.	المثقف
من يكون صاحب علم وثقافة أو فكر، ويتجاوز هذا، إلى محاولة التأثير في الآخرين، لينقلهم من حالة فكرية أو سلوكية، إلى حالة أخرى يرى بأنها الأقوم.	الداعية
من تكون له رؤية محددة في تغيير الواقع وإصلاحه، وحل مشكلاته، لا سيما العامة منها، في المجالات الاقتصادية والثقافية والاجتماعية.	المصلح
يتميز بروح نقدية تجاه حالة المجتمع والعالم والأفكار السائدة، ويكشف تناقضاتها، ويصوغ آراءه في مفاهيم ونظريات إصلاحية تتصف بالعمق والجدّة والتماسك.	الفيلسوف

لقد تبين لنا أن الفكر هو المضامين المميّزة التي تصف حالة الشخصية التي نسميها المفكر، ومع ذلك تكون بعض هذه المضامين

مشتركةً - في مستوياتٍ متفاوتةٍ - مع الشخصيات الأخرى: العالم والمثقف والفيلسوف... إلخ. لكنَّ هذه المضامينُ تكون واضحةً ومستقرةً لدى كل شخصية من هذه الشخصيات، حتى إنَّك تستطيع أن تصفَ البنية الفكرية، أو البناء الفكري، في كل شخصية منها، وتستطيعُ أن تتحدَّثَ عن درجة الغنى والثراء الفكري لدى أمثلةٍ ونماذجٍ وأسماءٍ من أيَّة فئَةٍ من فئات الشخصية المشار إليها، فتقارن مثلاً بين مستويات العمق والتنوع في الغنى الفكري بين عدد من المثقفين، أو بين عدد من العلماء... إلخ.

ثالثاً: حوار العلم والفكر

حين يكون حديثنا في هذا المقام عن الفكر، فإنَّنا نأمل أن لا يخطر ببال القارئ أنَّ الإعلاء من شأن الفكر هو تقديس للأفكار التي يأتي بها الإنسان، فحديثنا هنا عن الفكر الإنساني الذي هو مظنة الصواب والخطأ، ونأمل كذلك أن نلتمس ما كان صواباً من الفكر، وفق المرجعية الإسلامية التي نتبنَّاها، فالصوابُ من الفكر صوابٌ؛ لأنَّه حقٌّ في ذاته، ولأنَّه - في مجال الفكر الإسلامي - موافق لما كان معلوماً من الدين بالضرورة، ولأنَّه فهمٌ صحيحٌ في ذاته، وعميقٌ في مستواه، ومفيدٌ عند تطبيقه.

ونأمل كذلك أن لا يكون حديثنا عن الفكر عزوفاً عن الحديث عن العلم، فبعض طلبة العلم، لا سيَّما العلم الشرعي، يفضلون

استخدام مصطلح العلم، والدخول إليه من أبوابه المألوفة في متون العلم وكتب التراث، بدءاً من الحديث عن فضل العلم والعلماء، والحث على طلب العلم. وبعض طلبة العلم الشرعي ينقلون عن أساتذتهم ومن كتبهم روح التعصب لفرع من فروع العلم، فيرون أنّ أشرف العلوم هو علم الفقه، أو علم الحديث، أو علم التفسير... إلخ. والأولى أن يكون شرف العلم ما كان العلم من أجله؛ من ارتقاء في مقدار الصلة بالله والنفع لخلق الله، ويزداد شرف أي علم عندما تقوى الرغبة فيه، وتلح الحاجة إليه.^(١)

وفي المقابل فإن بعض المثقفين أو من يدعون الثقافة، وبعض المفكرين أو من يدعون الفكر، يظنون أن التخصصات العلمية سواء كانت في علوم الشريعة أو العلوم الطبيعية أو حتى العلوم التطبيقية هي سجون علمية لا تتعامل إلا مع جزئيات العلم وتفصيله، بينما تحرّم من يكون في داخلها من أنسام الثقافة ورياح الفكر، التي يكون معها الاهتمام بقضايا المجتمع والأمة، والإسهام في جهود إصلاح الواقع وتطويره. وإذا كان في بعض الظن حق، فإننا لا ينبغي أن ننسى أسماء علماء بارعين في علومهم، وهم في الوقت نفسه في قمة الثقافة أو في قمة الفكر.

(١) النملة، علي بن إبراهيم. الفكر بين العلم والسلطة؛ من التصادم إلى التعايش، ط ٢، الرياض: العبيكان للنشر، ٢٠٠٧م، ص ١٢-١٦.

والذي نؤكد عليه هنا أننا لا نقارن بين العلم والفكر، لنعطي الأفضلية لأحدهما على الآخر، مثلما أننا لا نعطي الفكر أولوية على الثقافة، أو الدعوة، أو الفلسفة. ويمكننا أن نقول: إنَّ العلم فكر، وإنَّ الثقافة فكر، وإنَّ الفلسفة فكر، فكل ذلك فكر إنساني، وكله نتيجة للتفكير الذي يقوم به الإنسان، ولكنه فكر بمستويات مختلفة وبمواصفات مختلفة، وربما يكون كلّه حقاً، ونجتهد في أن نتعامل معه بوصفه فكراً إسلامياً. وليس لدينا ما يسوّغ رفض القول الآخر الذي يرى أنَّ الفكر علم، وأنَّ الثقافة علم، وأنَّ الفلسفة علم، على أساس أنَّ العلم في سياق المعرفة البشرية هو ما عَلِمَهُ الإنسان في مستوى من المستويات أو موضوع من الموضوعات. وجاء عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في نهج البلاغة: "... وَلَا عِلْمَ كالتفكُّر، ... وَلَا شَرْفَ كالعِلْم..."^(١)

والتمييز بين العلم والفكر على أساس مدى توافر المنهج في أيّ منهما لا يفيد كثيراً؛ لأنَّ المنهج يمكن أن يكون ادعاءً لا حقيقة، وأنَّ المنهج قد يكون صراطاً مستقيماً إلى الحقيقة، وقد يكون طريقاً إلى الضلال. والتمييز بين المفهومين على أساس مدى توافر الدليل، لا يفيد كثيراً؛ للسبب نفسه، فقد يكون الدليل واضحاً في تأييد العلم أو

(١) ابن أبي طالب، علي أمير المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. نهج البلاغة، مختارات: الشريف الرضي، شرح: الإمام محمد عبده، بيروت: دار المعرفة، ج ٤، ص ٢٧.

تأييد الفكر، وقد يكون وهماً لا قيمة له في تأييد أيّ منها.



القراءة الفكرية

هذان كتابان عن الفكر، لكل منهما غرض مختلف عن الآخر. الدكتور علي بن إبراهيم النملة أستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض متخصص في علم المكتبات والمعلومات. والدكتور عبد الله بن سالم باهمام مشرف تدريب في إدارة التدريب التربوي بالرياض، ومتخصص في إدارة الأعمال والإعلام (التسويق).

الكتاب الأول في الأصل مجموعة مقالات قصيرة في الجرائد اليومية، يجمعها خيط واحد عبّر عنه عنوان الكتاب. والكتاب الثاني كتاب منهجي متأسك في محتواه وفي الغرض منه، وهو مادة للتدريب.

الكتابان يتحدثان عن الفكر، بتفاصيل كثيرة، ولكن لكل منهما فكرة مركزية يريد المؤلف أن يقدمها للقارئ، وقد لا تكون الفكرة مبسطة في عبارة من عبارات الكتاب بصورة مباشرة، وإنما قد تكون متضمنة بصورة غير مباشرة، تكشف عنها "القراءة الفكرية" للكتابين. القراءة الفكرية هي قراءة القارئ، وقد لا تكون متطابقة بالضرورة مع فكرة المؤلف.

رابعاً: حركة الفكر وفكر الحركة

لا يحدث التشكُّل الفكري عند الفرد بصورة مستقلة عن الظروف التي تتشكل فيها نفسية الفرد وعقليته. فثمة عوامل عديدة تسهم إيجاباً أو سلباً في هذا التشكل. وبعض الأفراد يتأثرون أكثر من غيرهم بهذه العوامل، ويتأثرون بهذه العوامل في بعض مراحل النمو أكثر من مراحل أخرى. ونظراً لأنَّ المفكر أو الشخص الذي يمتلك قدرات فكرية محددة لا يولد حاملاً هذه الصفة، وإنما يبدأ كما يبدأ أيُّ فرد بشري؛ لا يعلم شيئاً، فإنَّه يكون قد تأثَّر في مراحل تشكُّله الفكري بكل العوامل التي تؤثِّر في هذا التشكُّل، فهو يتشرب، بوعي أو دون وعي، مشاعر الانتماء للدين والطائفة والمذهب، وتصبح هذه المشاعر فيما بعد حقائق فكرية يجري تبنيها بقوة أحياناً، وتستنفر من أجلها الحجج والأدلة الفكرية. وقد تؤثِّر هذه البيئة سلباً على الفرد، وتحدث رد فعل عكسياً، حين تتولد لديه كراهية لما عرفه في بيئته من أفكار، ويبحث جاهداً لنقضها، والتبرؤ منها.

ولا شك في أنَّ التنشئة الأسرية والتعليم المدرسي وخبرات الحياة، وفرص الانتماء لمدرسة فكرية أو حركة ذات مرجعية فكرية... لا تكون على صورة واحدة، فيما توفره من بيئة للنمو والتشكل الفكري، لذلك فإنَّ من المهم فهم العلاقة بين الحركة والفكر والمشارك بينهما في المكونات، والتفاعل في الوظائف.

ونستطيع أن نقرر سلفاً صعوبة تصور حركة لا فكر لها، ويبقى السؤال عن نوع الفكر الذي تتبناه الحركة، وحضور المفكرين في صفوفها، وقيمة الفكر في جهودها، وبرامجها في تنمية الفكر وتجديده وتوسيع آفاقه. ومع أننا نستطيع أن نقول إن الفكر هو حركة العقل، حين يبدع عقل المفكر فكرته، وبذلك يكون الفكر والحركة مفهومين متلازمين، فإننا نستطيع كذلك أن نتصور وجود أفكار تفتقد الحركة بعد إنتاجها، لغياب من يحملها ويتحرك بها، وفي هذه الحالة فلن يكون لهذه الأفكار من القيمة والأهمية ما يمنحها الحركة المنشودة في التأثير والفاعلية والتغيير.

ولو حللنا واقع الحركات المعاصرة سواءً كانت حركات اجتماعية أو سياسية أو فكرية أو عسكرية، فإننا سوف نلاحظ أن مصطلح الحركة يشير أساساً إلى الرغبة في تغيير الواقع السائد، وبذلك فإن مفهوم الحركة يعنى وجود جماعة أو تنظيم يتحرك في الواقع القائم من أجل تغييره، ويستخدم من أجل ذلك وسائل معينة للتغيير.

لقد كان الإسلام حركة في الواقع القائم حين نزوله، وبعد استتباب الأمر للدولة والمجتمع الإسلامي، على صورة معينة للفهم والممارسة، نشأت حركات معارضة، لا سيّما في نهاية خلافة عثمان رضي الله عنه، ودعا بعضها إلى فرض ما تبنته هذه الحركات من فهم مخالف لما كان سائداً، واستخدمت العنف في محاولة تحقيق رؤيتها الثورية المعارضة.

وهناك دراسات عديدة حاولت التأريخ لنشأة الحركات الإسلامية في العالم الإسلامي، تتحدث عن الحركات والأفكار التي تبنتها هذه الحركات، منها ما نشرته مجلة المسلم المعاصر سنة ٢٠٠١م.^(١) ونكتفي بالإشارة إلى مصطلح حركة الفكر وفكر الحركة، وإلى بعض الكتابات التي استخدمت هذا المصطلح، لا سيما كتابات طه جابر العلواني وأحمد الريسوني.

فالعلواني ربما كان يريد بهذه المصطلح شيئاً مختلفاً عن الدلالة التي ينصرف إليها الذهن في غالب الأحيان. فقد ركزت إشارته الموجزة على ما سماه المؤلف "حركة الأمة" وما تحتاجه من الجهد لبلورة "المنظومة الفكرية الإسلامية المعاصرة والبديلة" والهدف هو "أن نغذي حركة الأمة بالزاد الفكري المطلوب الذي تفتقر إليه."^(٢) وهو لم يكن معنياً بفكر الحركة بمعنى الأفكار التي تبناها الحركات الإسلامية، بقدر ما كان معنياً بفكر الأمة وحركة الأمة بهذا الفكر، ومن ثم حركة الفكر في الساحة الإسلامية.

(١) الزفتاوي، عصام الدين. "حوارات حول حركة الفكر الإسلامي المعاصر خلال القرن العشرين - دراسة وتحليل"، مجلة المسلم المعاصر، العدد ٩٨، السنة ٢٥، أكتوبر-ديسمبر ٢٠٠٠م، ص ١٣٩-١٨٧.

(٢) العلواني، طه جابر. إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات؛ ورقة عمل، سلسلة إسلامية المعرفة رقم ١٠، هيرندن والرياض: المعهد العالمي للفكر الإسلامي والدار العالمية للكتاب الإسلامية، ط ٢، ١٩٨٤م، ص ٤٣.

أما الريسوني فقد أورد في مقالة قصيرة بعنوان: "الحركات الإسلامية في فكر الحركة وحركة الفكر." جاءت ضمن أوراقه النقدية.^(١) وقد لاحظ الريسوني أن نشأة الحركات الإسلامية المسكونة بالهم السياسي قد رافقه ضعف في تكوين العلماء والمفكرين والباحثين. ومن ظهر في الحركات من هؤلاء ظهر عرضاً. وما نشأ في فكر للحركة كان فكراً: "في خدمة الحركة ومتطلبات المعركة، فكر يدافع عن خط الحركة، وعن مواقف الحركة، وعن تعليمات الحركة، وعن اختيارات الحركة، وعن مصلحة الحركة. فهذا هو «فكر الحركة»، وهو في الحقيقة أقرب إلى ما يسمى -بصفة عامة- بالفكر الحزبي أو العقلية الحزبية. ولذلك "فقد عجز فكر الحركة هذا على مواكبة التطورات والمستجدات، سواء داخل الحركات الإسلامية نفسها أو فيما حوالياً".

وإذا كان الريسوني يتفهم ظروف نشأت الحركة الإسلامية في صورة «حركة تحريرية... بحاجة ماسة إلى فكر نضالي منضبط ومتمذهب باختياراتها،" فإنه يقرر أن الحركة الإسلامية اليوم "قد

(١) وردت هذه المقالة على الموقع الإلكتروني للدكتور أحمد الريسوني مؤرخة في ١١/٥/٢٠٠٥م ضمن سلسلة من المقالات في نقد الحركة الإسلامية، وقد نشرت المقالة في مواقع إلكترونية كثيرة وشارك في الحديث عنها والإشارة إليها كثير من الكتاب. انظر المقالة في موقع الريسوني على الرابط:

- <http://www.widesoft.ma/raissouni/def.asp?codelangue=6&info=347>

أصبحت اليوم مدعوة وملزمة بأن تكون حركة اجتهادية تجديدية، في نفسها وفي مجتمعتها، فلذلك أصبحت في أمس الحاجة إلى الفكر الحر وإلى الفكر المبدع، فهي بحاجة إلى أن تطلق وتدفع «حركة الفكر» من غير خضوع وتبعية لفكر الحركة.

خامساً: المدارس الفكرية

شهد النصف الثاني من القرن العشرين مجموعة من الشخصيات التي اهتمت بالفكر الإسلامي، بعضها كان ضمن الحركات والأحزاب والتنظيمات الإسلامية، وبعضها تعامل مع الفكر الإسلامي من موقف ناقد للتوجهات الفكرية التقليدية سواء السلفية التراثية أو التجديدية العصرية، واتخذ مساراً متحرراً من هذه التوجهات يجتهد في ممارسة المنهجية التي عرفتها مذاهب الحداثة الغربية، أو مذاهب ما بعد الحداثة، وكانت بعض هذه الممارسات علنية صريحة، وبعضها ضمنية باطنية.

حين يكون الحديث عن الفكر لدى الفرد الإنساني، يمكن أن نقول: إنَّ لدى ذلك الفرد بناءً فكرياً معيناً، أو أنه مفكر. لكن البناء الفكري يمكن أن يكون صفة لمجموعة من الناس يشتركون في أنهم يملكون بناءً فكرياً واحداً، أو ينتمون إلى مدرسة فكرية واحدة. والمدرسة الفكرية قد تكون جمعية إصلاحية، أو حركة دينية، أو حزباً سياسياً، أو جماعة علمية في تخصص معين، وقد تكون تياراً فكرياً

واسعاً يشمل قطاعات كبيرة من المجتمع، أو تغلب على المجتمع كله. وقد يغلب على أتباع المدرسة الفكرية منهج محدد في النظر إلى الأمور وممارسة التفكير والبحث والسلوك ضمن هذا المنهج، كما هو الحال في المدرسة الصوفية أو المدرسة السلفية، أو الفلسفية. كما قد تتميز مناهج النظر بين المدارس الفكرية في صورة مذاهب فقهية مختلفة.

ومن الأمثلة على المدارس الفكرية: جماعة الإخوان المسلمين، وحزب التحرير الإسلامي، ومدرسة فرانكفورت في الفلسفة، ومدرسة شيكاغو في الاقتصاد، ومدرسة فيينا الوضعية، ومدرسة إسلامية المعرفة، والمدرسة السلفية.

وتتميز المدرسة الفكرية غالباً بوجود عدد من الرواد التي يُرجع إلى كتاباتهم في توضيح مقولات هذه المدرسة، يشتركون في مجموعة من الأفكار، ومجموعة من الآمال والطموحات، التي يسعون إلى تحقيقها، بقدر من التعاون والتنسيق بين المنتمين إلى المدرسة. وتتميز المدرسة كذلك بوجود جمعية مهنية أو علمية لها نشاطاتها في النشر وتنظيم المؤتمرات والندوات والدورات التكوينية.

فالبناء الفكري ضمن المدرسة الفكرية الواحدة هو مجموعة الأفكار (المعتقدات) والآمال (المشاعر) التي تشكل رؤية الإنسان الفرد لنفسه، ولمجتمعه، ولتاريخ هذا المجتمع وحاضره ومستقبله، ولواقع العالم من حوله، وتاريخ هذا العالم، ولمنهج التغيير المطلوب

لإصلاح الواقع في مجتمعه وحل مشكلاته. ويشترك أعضاء المدرسة الفكرية الواحدة بمجمل هذه الأفكار والآمال.^(١)

صحيح أن الأفكار والآمال في المدرسة الفكرية الواحدة قد لا تكون متطابقة تماماً، نظراً للاختلافات الفطرية بين الأفراد وتميز كل منهم عن الآخر، لكن القدر المشترك بين مجموعة الأفراد في المدرسة الواحدة يكفي لجعلهم مجموعة واحدة متميزة عن الأفراد في خارج المجموعة أو عن المجموعات الأخرى.

(١) أرجو أن لا يؤخذ هذا النص بوصفه التعريف "الجامع المانع"، بل يؤخذ على أنه صيغة من الصيغ التي نعبر بها عن مفهوم البناء الفكري، بمناسبة التمييز بين عنصرين في هذا البناء وهما: المدركات الاعتقادية، والمدركات الانفعالية.

الفصل الثالث:

البناء الفكري للمجتمع والأمة

مقدمة:

الهوية الفكرية يصح أن تكون وصفاً لأية جماعة صغيرة أو كبيرة، ويحدد هذا الوصف مجموع الأفكار التي يتبناها أفراد هذه الجماعة، وطرق التفكير التي يستعملونها، ومن ثم البنية الفكرية التي تتضمن منظومة المعتقدات والقيم وأنماط السلوك. وتتشكل هذه البنية من مصادر مختلفة، تعود إلى الموروث التاريخي، أو أساليب التنشئة التربوية والاجتماعية، أو التثقيف القسري للنظام السياسي، أو غير ذلك من الآثار.

نحاول في هذا الفصل الوقوف على بعض هذه العوامل التي تشكل الهوية الفكرية للفرد والمجتمع، ودور الفرد والنخبة في إبداع الفكر ودور البيئة المؤسسية في احتضان الفكر ورعايته وتسويقه، وفي بناء رأس المال الفكري للمجتمع والأمة، وموقع الأمة المسلمة في الريادة الفكرية.

أولاً: الهوية الفكرية

تحرص المجتمعات عادة على المحافظة على هويتها الفكرية والثقافية من خلال عدد من الأساليب والوسائل والإجراءات، منها:

- برامج التربية والتنشئة الأسرية التي يتعلم فيه الفرد اللغة الأم، وكثيراً من القيم والأعراف الاجتماعية.

- برامج التعليم العام التي يتعلم فيها الفرد أساسيات العلم والمعرفة عن تاريخ بلده، وجغرافيته، وأنظمتها، والحقوق والواجبات التي يجب أن تقوم بين أفراد المجتمع وفئاته.

- مؤسسات المجتمع الرسمية أو الأهلية، التي يكون لها اهتمامات خاصة في مجال ثقافي أو سياسي أو اجتماعي، ولكنها مع ذلك تسهم في بناء الهوية الوطنية لأبناء المجتمع، بما فيها من عناصر فكرية وثقافية. ومن هذه المؤسسات على سبيل المثال: الأحزاب السياسية، والجمعيات والنقابات المهنية، والمنظمات الشبابية والرياضية، والمكتبات العامة، وغيرها.

- التشريعات والقوانين التي على الفرد أن يلتزم بها، بصورة تحقق تماسك المجتمع، وتحافظ على مصالحه، والعقوبات التي يمكن أن يتعرض لها الفرد إذا خالف هذه الأنظمة والقوانين.

مثل هذه الأساليب والوسائل تشترك في صياغة عقول الأفراد في المجتمع ونفسياتهم، وأنماط السلوك لديهم، بصورة تستطيع أن تميز هوية الفرد وانتماءه إلى مجتمعه. فالبناء الفكري لمجتمع ما يتحدد بمجموع الأفكار والمشاعر وأنماط السلوك المشتركة بين أفراد ذلك المجتمع، وتكون مختلفة عنها في مجتمع آخر، وبذلك يكون للمجتمع

الآخر بناء فكري آخر. وبقدر ما تشترك مجتمعات الأمة في أساليب التنشئة، وبرامج التعليم، وإقامة المؤسسات العامة والخاصة، وأنظمة الحياة، بقدر ما يتوحد بناؤها الفكري.

وعندما نتحدث عن الأمة الإسلامية في دلالاتها المحددة في القرآن الكريم والحديث النبوي والتراث الإسلامي، التي عرفت في تاريخها معاني الوحدة، والتماسك، والتكافل، والتناصر، ثم عرفت في واقعها المعاصر التمزق إلى دول ومجتمعات، وإلى طوائف ومذاهب، وإلى أعراق ولغات...، فإنَّ علينا أن نتخيل معنى البناء الفكري للأمة في حالتها المشار إليها.



أساليب تحقيق التجانس في البناء الفكري في المجتمع

ثانياً: البناء الفكري بين الجمود والتجدد

تتميّز بعض الحركات بأنها تبني مدارس فكرية تستمر بعد وفاة مؤسسها، وتضرب جذوراً عميقة في واقع الفكر وواقع المجتمع، ثم تستقر المدرسة الفكرية فترة طويلة دون تجدد يُذكر. وعلى ما في هذه الأفكار الأولى التي تكونت على أساسها المدرسة الفكرية من تميّز وإبداع، وعلى ما اتصفت به القيادة التي كوَّنتها من عبقرية في البناء، فإنّ الجمود على تلك الأفكار الأولى قد لا يكون صفة إيجابية. إن ذلك لا يعني إنكار فضل المؤسس، والتهاون في الاعتراف بعبقريته في صياغة أفكار الحركة، بحيث ترتبط بهوية المجتمع وانتمائه الفكري ارتباطاً وثيقاً، أو لعبقريته في صياغة تنظيم الحركة في صورة أفكار صالحة للتبني وقابلة للبقاء.

إنّ التغيّر حقيقة من حقائق الكون، فساعة الزمن في هذه الحياة الدنيا، لا تتوقف عقاربها. ويكفي أن يكون مرور الوقت عاملاً أساسياً في تغير الأشياء والأشخاص والأفكار، ذلك أن الإنسان بمرور الوقت ينمو ويكتسب خبرات جديدة، فيزداد في العلم، ويتطور في التجربة، وهو في ذلك يتذكر أموراً وينسى أخرى. لذلك لا نتخيل معنىً للجمود في فكر الإنسان على وجه الحقيقة. ومع ذلك يكثر الحديث عن الحاجة إلى التجدد والتجديد، ويتجدد الحديث عن الانفتاح والانغلاق في كل مناسبة للحديث عن الفكر الإسلامي،

فماذا يعنى ذلك؟

إنّ للتجديد ثمثلات متعددة، فمنه اجتهاد جديد في فهم نص، أو تنزيل النص على الواقع؛ ومنه انتقال بالفكر الإسلامي من معالجة المسائل الجزئية في حياة الأفراد والمجتمعات إلى الانشغال بالقضايا الكلية والمسائل العامة للأمة والبشرية؛ ومنه توظيف الوسائل والأدوات التي تستجد في واقع المجتمع الإنساني في تعميم المعرفة بالدين، والتبشير به والدفاع عنه، ومنه تطوير المفاهيم وتنظيم الأفكار ضمن ضوابط منهجية تحدُّ من الفوضى الفكرية، وتوفر إطاراً مرجعياً للحركة الحرة داخل هذا الإطار، دون انفلات من ثوابت الدين ومقاصده في تحقيق مصالح الأمة. وهكذا.

وصور التجدد والانفتاح في الفكر محمودة منشودة، ويميل الناس إلى ادعائها، حتى لو لم تكن موجودة فيهم، والحديث عنها سهل ميسور، وهو أصعب من الحديث عن صور الجمود والانغلاق التي يميل الناس إلى ذمّها والتبرؤ منها، على الرغم من أنهم قد يكونون واقعين فيها. وعلى كل حال فالتجديد أمر نسبي، وليس صفة مطلقة، فهو نسبة إلى المستوى الذي يطلبه الإسلام، أو نسبة إلى ما يتوافر من إمكانات التعلم والتجدد، أو نسبة إلى ما يتوفر من انفتاح وتجدد عن الآخرين. وفي المقابل فإنّ الثبات على ما صح من أفكار ومبادئ صفة مطلوبة لا تتناقض مع اتجاه التجدد مع الثبات على

المبادئ والكليات والمرجعيات العامة. ولعلَّ الحقُّ أن يكون في الاحتفاظ بالتوازن بين الثبات على الأفكار المبدئية من جهة، والتجدد في مسوغات هذا الثبات، وضرورته، وتجديد فهمه، والتعبير عنه، من جهة أخرى.

وعلى من يأمل في اكتساب بناء فكري محدد أن يُبقي المجال مفتوحاً للنمو والتجدد، وأن يختبر اليوم ما كان عليه بالأمس، وينظر إلى بنائه الفكري، ليلتمس ما أضافه إليه من جديد وما أجرى عليه من تطوير، نتيجة لما سمعه أو قرأه أو مر به من خبرات وتجارب.

ثالثاً: تسويق الأفكار

التسويق علم له مفاهيم ومبادئ ونظريات، وله كتب أكاديمية ومهنية، وله برامج وتطبيقات في تسويق السلع والبضائع والخدمات. وقد انتقلت فكرة تشبيه نشر الأفكار بعملية تسويق الأشياء من خلال القيمة العلمية التي يمكن أن تبنى عليها إجراءات في التطوير والتصنيع يكون لها عائد مادي. ومن هنا جاءت فكرة براءات الاختراع، لتسجل حقوق صاحب الفكرة، والإفادة مما قد يظهر لها من تطبيقات عملية في سوق الأشياء أو الخدمات. ومن هنا جاءت كذلك فكرة الملكية الفكرية، وجاءت فكرة اقتصاد المعرفة... إلخ.

إنَّ قيمة ما يمتلكه الفرد من أفكار لا تظهر ما دامت حبيسة لدى صاحبها، وإنما تظهر قيمة الأفكار عندما تنتشر وتشيع، وتصبح

عنصراً مهماً في ثقافة المجتمع، أو رأياً عاماً في السياسة، أو ممارسة معينة في الاستهلاك... إلخ. ومصطلح تسويق الأفكار ليس بعيداً في دلالاته عن مصطلحات عديدة أخرى، مثل التربية والتنشئة والنشر، والاتصال والدعاية وغسيل الأدمغة، وبرمجة العقول، والغزو الفكري،... إلخ. المهم أن مصطلح تسويق الأفكار يؤكد على القيمة العملية والفائدة المرجوة من الأفكار المراد نشرها أو تسويقها.

وهل عمليات التعليم والتدريس إلا نقل أفكار؟!

وهل ما يدور في أجهزة الإعلام المرئي، والمسموع، والمقروء، إلا محاولات لنشر أفكار صحيحة أو سقيمة؟!

أليست الجهود التي يبذلها المصلحون والدعاة من أجل تغيير الواقع، وحل مشكلاته هي في الأساس مبادرات فكرية؟!

بم يملك القادة في أي قطاع من فعاليات المجتمع قدرتهم على القيادة التي يؤثر بها في عقول الناس وقلوبهم، إن لم يكن ذلك بما يطورونه من أفكار، وما يقومون به من أفعال على أساس هذه الأفكار؟!

كيف تعرف أنك تملك أفكاراً عظيمة إذا لم تتحدث هذه الأفكار عن نفسها بفعلك وسلوكك؟ وإذا لم تتحدث أنت عنها بلسانك وقلمك؟

هذه التساؤلات تقود إلى حقيقة لا خلاف عليها، وهي أن قيمة الأفكار -أيا كانت قيمتها- إنما تكون في انتقالها من المنشئ إلى المتلقي، وفي حركتها في اتجاه الفعل والتأثير.

رابعاً: حاجة الأمة إلى القيادة العلمية والفكرية

١ - القيادة الفكرية للأمة:

الأمة الإسلامية حاملة الرسالة الإلهية الخاتمة، ووريثة القيادة النبوية الراشدة، ومصادر هذه الرسالة محفوظة لم يطرأ عليها التحريف والتبديل، والله سبحانه قد كلف هذه الأمة أن تتسهم مهمة القيادة الفكرية للأمم الأخرى، فكانت بأمر الله في موقع الشهادة على الناس، تقدم لهم الهداية وتكون لهم أسوة وقدوة في اتباع الهدى وبذله وتعليمه. وقد أدت الأمة هذه المهمة بكفاءة لم تقدمها من قبل أمة أخرى من أتباع الأنبياء السابقين، فأقامت مجتمع الهدى والخير والعدل، وكانت قبلة العلم والتقدم، يأتي إلى مؤسساتها ومعاهدها الراغبون في التعلم فينهلوا منها العلم في مجالاته المختلفة، والقيم في مستوياتها المتعددة، وأنماط السلوك الحضاري في صور الإدارة والتنظيم وأصول التعامل الاجتماعي. والله سبحانه يودّ لهذه الأمة أن تستعيد هذه القيادة، وإلا فإن الله سوف يستبدل بها أمة أخرى.

٢ - قيادات فكرية متخصصة:

وقد تميزت من داخل الأمة المسلمة قيادات متخصصة في كل

مجال من مجالات القيادة، كان أبرزها مجال العلوم والمعارف والأفكار. ففي وقت مبكر ظهر الحرص على حفظ تراث النبوة، وذلك بتدوين الحديث النبوي الشريف، والسيرة النبوية، ونبغت في ذلك قيادات من الحفاظ والرواة والمدونين والمحققين والمدققين، وتشكلت من ذلك علوم لم تعرفها الأمم السابقة منها علوم الرواية والدراية ومصطلح الحديث، والجرح والتعديل، والعلل. ودوّنت هذه العلوم، وأصبحت كتبها أصولاً ومراجع ومصادر، لكل ما جاء بعدها من تطور ونبوغ. كما تشكلت قيادات فكرية وعلمية أخرى في الفقه تمثلت في المدارس الفكرية التي سميت بالمذاهب، وقيادات أخرى في التفسير والعقيدة والتصوف، والطب، والفلك والبصريات والكيمياء والفلاحة. وكلها قيادات معروفة للباحثين والمؤرخين حتى عند الغربيين.

٣- المؤسسات والقيادة الفكرية :

كان المسجد في بداية الأمر هو المؤسسة التي تنمو فيها كفاءات العلماء وخبراتهم، واتسعت مهام المسجد ليكون أشبه بالجامعات المعاصرة؛ فكان منها جامع الزيتونة في تونس، وجامع القرويين في فاس، والجامع الأزهر في مصر. ومع ذلك فقد أنشأ المجتمع الإسلامي مؤسسات تعليمية متخصصة للتدريس والتدريب والتبحر في مجالات العلوم المتخصصة، منها المدارس، والمرصد الفلكية، والمشافي الطبية أو البيهارستانيات، والمكتبات العامة، لتخزين الكتب

ونسخها وترجمتها، مثل بيت الحكمة في بغداد ودار الحكمة في القاهرة.

٤ - التّخب الفكرية أساس نهضة أوروبا:

عرفت أوروبا ما وصل إليه التقدم في العالم الإسلامي، لا سيما عن طريق الوفود الدبلوماسية التي كان ملوك أوروبا يرسلونها إلى بلاط الخلفاء المسلمين، وعن طريق الاتصال المباشر في الأندلس وصقلية، ثم في فترة الحروب الصليبية، فأخذوا الملوك الأوروبيون يرسلون وفوداً من المتعلمين لنقل الخبرة والثقافة والعلم، بدأت تتشكل في أوروبا اعتباراً من القرن الثاني عشر الميلادي قيادات فكرية في مجالات العلوم المختلفة، وبدأت هذه القيادات تشكل نخباً ومدارس فكرية ومؤسسات تعليمية حفلت بالراغبين في نقل حالة شعوبهم من التخلف الذي كان يسود أوروبا في جميع المجالات. وقد أسهم كل ذلك في النهوض والتقدم الأوروبي.

٥ - الإبداع الفردي أساس القيادة الفكرية:

كل عالم من هؤلاء العلماء في التخصصات المختلفة يمثل في زمانه ومكانه قيادة فكرية، وكان أهل الاختصاص في كل علم يمثلون نخباً من القيادات الفكرية في كل تخصص، ومع ما للجماعة والمؤسسة والمجتمع بأكمله من دور في تحديد موقع الفكر في قيادة المجتمع، فإننا لا نستطيع تجاهل دور الفرد في الإبداع العلمي والفكري. ذلك أنّ الفكر أقرب إلى الرؤى الإبداعية، التجديدية، أو الثورية، التي

يصوغها المفكر الفرد في الأساس،^(١) فمنهج العلم هنا وُلد أفكاراً أصبحت فيما بعد جزءاً من موضوع العلم. ومع ذلك يبقى المجال مفتوحاً لحركة النمو والتطوير والمراجعة في كل علم، كلما أعمل عالمٌ فكره، وولدَ الجديد من الفكر العلمي في تخصصه. لكن الإنجاز في الفكر البشري لا يقتصر على مجال واحد من مجالات العلوم المتخصصة المعروفة الأمر الذي يقتضي تعاون العلماء فيما بينهم، فبعض المسائل هي موضوعات بَيِّنَةٌ التخصص، أو عابرة للتخصصات أو متعددة التخصصات أو حتى فيما وراء التخصص.

٦ - الجامعة في موقع القيادة الفكرية:

حصل تطور كبير على مفهوم الجامعة ومهمتها في المجتمع الإنساني، عبر التاريخ. واستقر وضعها الآن على أنها مؤسسة مهمة

(١) يمكن للقارئ أن يزور موقع جائزة نوبل ليتعرف على أن معظم الفائزين هم أفراد، وحتى عندما تمنح الجائزة لاثنين أو أكثر، فإن ذلك يكون لاستحقاق كل عالم للجائزة فتقسم الجائزة على المستحقين. انظر ملحق جائزة نوبل في الكيمياء في الرابط:

- http://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D9%84%D8%AD%D9%82:%D8%AC%D8%A7%D8%A6%D8%B2%D8%A9_%D9%86%D9%88%D8%A8%D9%84_%D9%81%D9%8A_%D8%A7%D9%84%D9%83%D9%8A%D9%85%D9%8A%D8%A7%D8%A1

أما في الآداب فقد منحت الجائزة في ١٠١ مرة لفائز منفرد، و٤ مرات لفائزين اثنين، وحجبت الجائزة في سبع مرات. انظر الرابط:

- http://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D9%84%D8%AD%D9%82:%D8%AC%D8%A7%D8%A6%D8%B2%D8%A9_%D9%86%D9%88%D8%A8%D9%84_%D9%81%D9%8A_%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%AF%D8%A8

من مؤسسات المجتمع الحديث تقوم بثلاث مهمات أساسية هي: التعليم، والبحث العلمي، وخدمة المجتمع. وهي في موقع القيادة في هذه المهمات الثلاث.

ثم إن أعضاء هيئة التدريس في الجامعات هم أعضاء في أسرهم وعائلاتهم وأحيائهم السكنية، فهم بذلك في مقام من يملك الحكمة في التعامل مع الآخرين، وهم أعضاء في النوادي الرياضية والاجتماعية والجمعيات التطوعية، والأحزاب السياسية. لذلك تتوجه إليهم الأنظار لتقديم ما يملكون من خبرة ودراية، في فهم الأحداث التي تطرأ، وفي التعامل الحكيم في المناسبات المختلفة، وهي مهمات قيادية قد لا يختارها الأستاذ الجامعي ولا يسعى لها، لكن المجتمع من حوله يتوقعها فيه ويطلبها منه.

وأخيراً، فإن من بين أعضاء هيئة التدريس من يعتصر خبرته وتجربته في العمل، وفي الحياة، لتأليف كتب يقدمون فيها لعامة القراء فهمهم لموضوعات محددة، يوظفون فيه تخصصهم العلمي، أو رؤيتهم الكلية لموضوعات عامة تتقاطع فيها المعرفة التخصصية، والخبرة العملية، والبصيرة الشخصية، وتتضمن اجتهادات فكرية ربما تمثل تأسياً لتوجهات محددة في السياسات العامة في المجتمع، أو استشرافاً لمستقبل منشود لهذه السياسات.

وهكذا فإن صور القيادة التي تحتلها الجامعة في المجتمع تتجاوز الصور التقليدية من الأداء المحدد لوظيفة الأستاذ الجامعي ومتطلباتها

المألوفة، وإنما هي قيادة في مجالات مفتوحة الآفاق تتطلب من الجامعة، ومن الأستاذ الجامعي رؤية استشرافية، وإنتاجاً فكرياً على درجة عالية من الأهمية.

٧- رأس المال الفكري:

مصطلح رأس المال الفكري دخل إلى عِلْمَي الاقتصاد (التنمية الاقتصادية)، والإدارة (التطوير الإداري) في الربع الأخير من القرن العشرين، وذلك حين ميّز الباحثون هذا المصطلح عن مصطلحات كانت أكثر استعمالاً، مثل رأس المال الطبيعي الذي يختص بالموارد، ورأس المال المادي الذي يهتم بالنقد والموجودات الثابتة، ورأس المال الاجتماعي الذي يختص بالعلاقات والشبكات الاجتماعية، ورأس المال البشري الذي يهتم بالطاقات والخبرات والمهارات التي يملكها الأشخاص. ثم أصبح الجزء المهم من رأس المال البشري هو رأس المال الفكري، الذي يتمثل في نخبة من العاملين في المؤسسة الذين يمتلكون قدرات معرفية وتنظيمية، ويتمكنون بها من إنتاج أفكار جديدة، أو تطوير الأفكار القديمة بهدف اغتنام الفرص. ذلك أن العلم والعقل والمعرفة أصبحت الأساس الأكثر قيمة في القوى المتنافسة.^(١)

وإذا كان رأس المال الفكري هو الذي يفسح المجال لشركة، أو مجتمع، أو أمة، أن تتقدم وتتفوق، فإنّ من المهم أن يكون رأس المال

(١) المرّجعي، عادل حرحوش. وصالح، أحمد علي. رأس المال الفكري؛ طرق قياسه وأساليب المحافظة عليه، القاهرة: المنظمة العربية للتنمية الإدارية، ٢٠٠٣م، ص ٨-١٨.

هذا عنصراً متجدداً يوفر استمرار التقدم والتفوق. وإذا جاز لنا أن نقل المصطلح لنصف ما يمكن أن تمتلكه الأمة الإسلامية وتتميز به، فإننا نتساءل هل تملك الأمة الإسلامية رأس مال فكرياً يجعلها غنية فكرياً ومن ثم ثقافياً وحضارياً، ويضعها في موقع التقدم والتفوق، ويوفر لها ضمان الاستمرار في هذا الموقع؟!!

لقد تحقق التفوق والتقدم لهذه الأمة كلما اهتدت بهداية القرآن والسنة، وتخلّفت عن التقدم والتفوق كلما أعرضت عن تلك الهداية. فرأس مال الأمة المتجدد العطاء هو هذا القرآن الكريم، وتطبيقاته النبوية، والعلوم الغزيرة التي دارت حولها. لكن رأس المال الفكري هذا ليس شيئاً مضمئاً وانقضئاً، وإنما هو الإطار المرجعي المهيمن الذي يدفع إلى تطوير الأفكار المتجددة، ويحفز على استمرار الإبداع والابتكار والاكتشاف، ويعلي من روح التجديد والاجتهاد في كل العلوم الأخرى: الطبيعة، والاجتماعية، والنفسية.

وما لم يكن رأس المال الفكري هذا موضع الفعل والتأثير، فلن يكون لأي شكل من أشكال رأس المال الأخرى ما يحقق للأمة تقدماً أو تفوقاً.

الفصل الرابع:

خرائط البناء الفكري

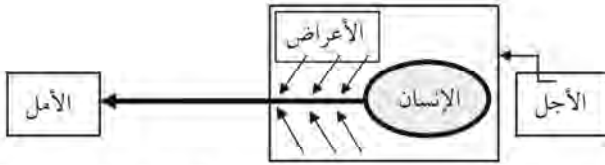
مقدمة:

ينظر هذا الفصل في عدد من أنواع خرائط البناء الفكري، تختص بالمصادر، والموضوعات، والوسائل، والتقويم، والتاريخ، والجغرافيا. ويحاول تحديد العناصر التي تكوّن كلّ خريطة، ومن ثمّ البرامج التي توضع من أجل استمداد الفكر من مصادره، وضمان التنوع والتعدد في موضوعاته، والتوسل بما يلزم من الأدوات. وخطة التقويم خطة عنصر مهم في أي برنامج، وعلى هذا الأساس يناقش الفصل مسألة التقدير الكيفي والكمي لمستوى ما يتحقق من البناء الفكري عند الأفراد وعند الجماعات، وذلك بما يمكن أن يُبنى من أدوات ووسائل القياس والتقويم، وهو ليس أمراً سهلاً، فالخبرات المتوفرة فيه محدودة، وممارسته ليست مألوفة.

والخريطة هي مخطط تمثيلي أو صورة تبين عدداً من العناصر، أو المفاهيم، ومواقعها وعلاقاتها، وبذلك تختصر على القارئ رؤية ما سيقروّه في الكتاب أو الفصل، مجتمعاً في مكان واحد، وتذكّره بمجموع ما قرأه ليخرج محتفظاً برؤية كلية له، مما يعينه على استدعاء هذه الصورة الذهنية كلما رأى أو استحضر في ذهنه تلك الخريطة.

وقد كان من أساليب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، التمثيل بالإشارة والرمز والرسم. ومن ذلك ما رواه البخاري عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، "قَالَ: خَطَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطًّا مُرَبَّعًا، وَخَطَّ خَطًّا فِي الْوَسْطِ خَارِجًا مِنْهُ، وَخَطَّ خُطَطًا صِغَارًا إِلَى هَذَا الَّذِي فِي الْوَسْطِ مِنْ جَانِبِهِ الَّذِي فِي الْوَسْطِ، وَقَالَ: " هَذَا الْإِنْسَانُ، وَهَذَا أَجَلُهُ مُحِيطٌ بِهِ - أَوْ: قَدْ أَحَاطَ بِهِ - وَهَذَا الَّذِي هُوَ خَارِجٌ أَمَلُهُ، وَهَذِهِ الْخُطُطُ الصِّغَارُ الْأَعْرَاضُ، فَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا تَهَشَّهُ هَذَا، وَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا تَهَشَّهُ هَذَا." (١)

وفما يأتي خريطة مفاهيمية تجتهد في التعبير عن مضمون الحديث النبوي المشار إليه.



تمثيل تقريبي للخطوط التي يشير إليها نص الحديث النبوي عن أمل الإنسان وأجله

ويتضمن الفصل حديثاً مقتضباً عن تاريخ الأفكار، والدور المحوري الذي نجده للفكر في تاريخ الوعي والممارسة الإنسانية، وحديثاً عن موضوع جغرافية الفكر الذي يلقي الضوء على أثر البيئات الجغرافية المختلفة على خصائص البنية الفكرية التي تتشكل في هذه البيئات.

(١) البخاري، صحيح البخاري، مرجع سابق، كتاب: الرقاق، باب: في الأمل وطوله حديث رقم: ٦٤١٧، ص ١٥٩٩.

أولاً: خريطة مصادر البناء الفكري

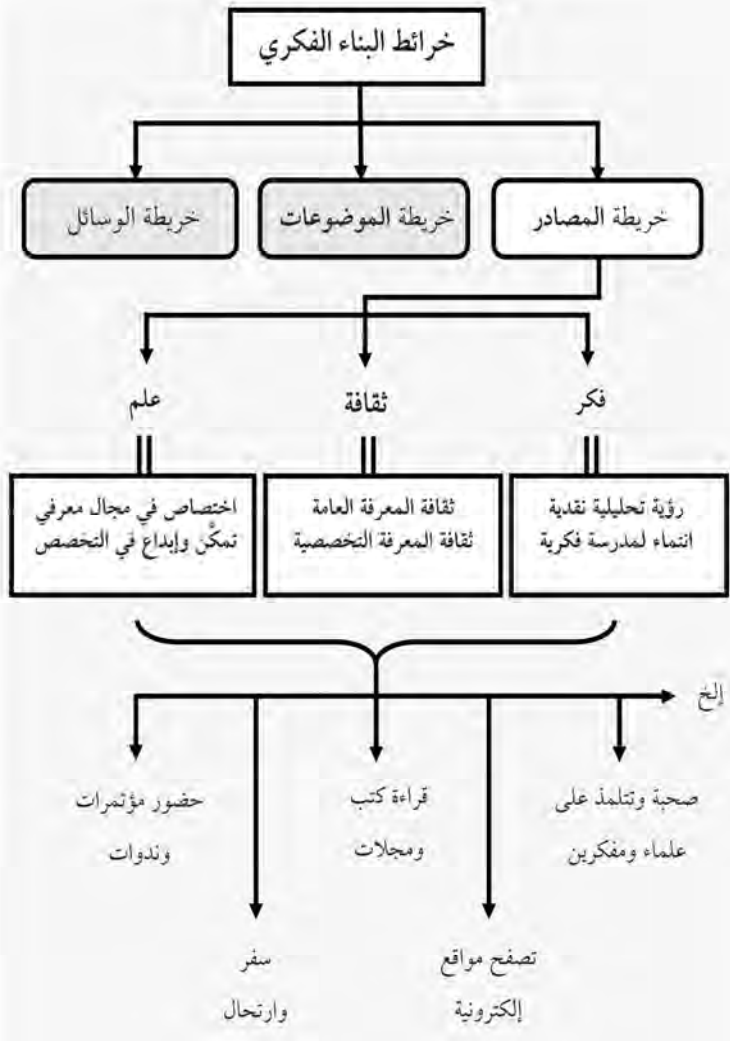
قد يكون من المفيد في البداية التأكيد على أهمية التمييز بين أنواع مختلفة من مصادر البيانات، سواءً كان ذلك في الأشخاص، أو الكتب، أو المجلات والدوريات أو المواقع الإلكترونية، ومنها:

- مصادر بيانات المعرفة المتخصصة، وهي مصادر الاستزادة والنمو في مجال التخصص العلمي.

- مصادر بيانات في ثقافة التخصص، مما يُعدُّ امتداداً لموضوع الاختصاص، لكنه أقرب إلى التبسيط لغير المتخصص، وأقرب إلى مجالات التطبيق العملي الذي يستقطب اهتمام العامة من الناس.

- مصادر بيانات في الثقافة العامة، ولا تصنف هذه المصادر عادة ضمن تخصص محدد، لكنها تتضمن بيانات ومعلومات وحقائق ومفاهيم تتطلبها الحياة الثقافية العامة.

- مصادر بيانات فكرية، وهي مصادر تنتسب في الغالب إلى مدارس فكرية محددة، أو تقدم تحليلات نقدية للمصادر الخاصة بهذه المدارس. وتتداخل هذه المصادر مع مصادر الثقافة العامة، لكنها أكثر تحقياً وتحديداً وعمقاً.



ثانياً: خريطة موضوعات البناء الفكري

يعتمد البناء الفكري على المصادر المتنوعة التي تمت الإشارة إليها، وفي السياق الإسلامي تبدو الحاجة ماسة إلى أن تركز الكتب والبحوث والحوارات -التي تفيد في البناء الفكري- على إعادة بناء رؤية كلية للعالم، تمكن الإنسان من إدراك وفهم القضايا والموضوعات المثارة في الفكر المعاصر ضمن هذه الرؤية، بصورة تتصف بالوضوح والتكامل والانسجام. لا سيما الموضوعات التي يكثُر حولها الجدل وتتفاوت فيها آراء عامة الناس، والمثقفين منهم على وجه الخصوص، وربما النخب الفكرية كذلك. ومن هذه الموضوعات على سبيل المثال:

١- موضوعات بناء الأمة: وهي اللغة والدين والتاريخ. ذلك أن هذه الموضوعات هي التي تبني الهوية الإسلامية العامة للفرد والمجتمع والأمة، وتحدد من ثم علاقة هذه الهوية بالهويات والانتهايات الفرعية الأخرى مثل الوطنية والقومية والعشائرية والمذهبية... إلخ. فقيمة الفكر الذي ينتجه المفكر هي في فعله وأثره في الآخرين، وكيف يتسنى لهذا الفعل والأثر أن يتحققا دون التواصل اللغوي المناسب؟ والدين عقيدة وشريعة أخلاق تتحقق به منظومة القيم العليا في التوحيد والتزكية والعمران. أما التاريخ فهو سجل لخبرة البشرية على الأرض بما في ذلك رسالات الأنبياء، وما لدينا من هذه الخبرة من أفكار حية وعبرة ودروس.

٢- موضوعات القضايا المثارة والقضايا التي يجب أن تثار، فالإعلام المعاصر ينقل للناس بوسائله الفعالة أخباراً وأحداثاً من كل أنحاء العالم. ويثير معها قضايا محددة ومشكلات تتجدد من يوم لآخر، ويتواصل الجدل حولها ويطلب إلى المفكر إن يكون له فهم لها وربما موقف منها. ومن هذه الموضوعات على سبيل المثال: قضايا الفهم الإسلامي للحرية والحرية الدينية، والعلاقات الدولية، ومفاهيم الجهاد، والتحالف والتعايش والمرأة والتنمية... إلخ.

٣- موضوعات الزاد الفكري الذي يسهم في بناء الرؤية الكلية وقيم البناء الفكري المتوازن، وهي أنواع متعددة، منها:

أ- كتابات في الفكر الإصلاحي والنهضوي، وتعالج قضايا الفكر ومناهج التفكير، ومناهج السلوك، كما تعالج قضايا الحضارات من حيث النشأة والانحطاط وقوانين ذلك، والعلوم المختصة بهذه القضايا مثل فلسفة التاريخ وتاريخ الأفكار.

ب- مداخل العلوم الاجتماعية والإنسانية: ويكفي فيها الإمام بالمفاهيم والقوانين والنظريات والتطبيقات العملية، واستحضار ذلك عند التفكير في المشكلات المثارة. وربما تكون الأولية لعلم الاجتماع وعلم السياسة وعلم الإعلام.

ت- أدبيات ومداخل في علوم التغيير (وهي العلوم التي تساعد على إدارة الذات وضبط تفكيرها): وعلى وجه التحديد الإدارة،

وتطبيقاته في إدارة الوقت، وإدارة الذات، وإدارة الجماعات وعلم المنهجية، وتطبيقاته في التفكير والبحث والسلوك، والتكامل المنهجي، والمدارس المنهجية وعلم النفس. وعلم النفس وقضاياها الأساسية في التعلم والنمو والتغيير.



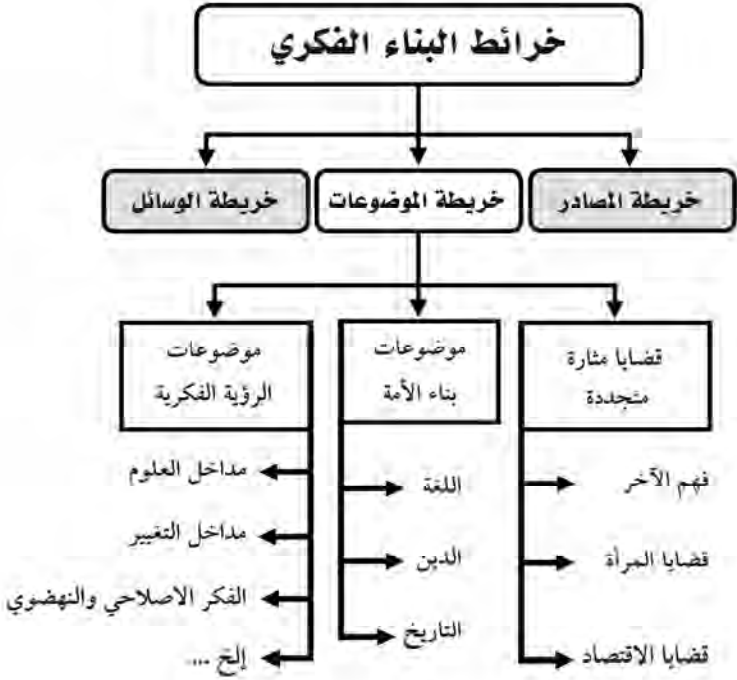
هرم المعرفة وأفاق توظيف مفرداتها

ومهما كان المحتوى العلمي للفكر البشري، علوماً شرعية أو طبيعية أو اجتماعية... فإن تحليل هذا المحتوى يكشف عن عناصر ذات مستويات متفاوتة في مقاديرها الكمية، وخصائصها الكيفية، وثمة علاقات بنيوية ووظيفية بين هذه العناصر. ومجموع عناصر

هذا المحتوى العلمي تظهر في بناء هرمي له قاعدة وقمة. ففي قاعدته في أي علم من العلوم، تتموضع حقائق ذلك العلم. لكن الفكر الإنسان يسعى عادة إلى التجريد والاختزال لتقليل العدد الكبير من الحقائق في عدد أقل من خلال ألفاظ مشتركة تسمى المفاهيم. ويسعى الإنسان كذلك إلى إقامة علاقات ارتباطية أو سببية بين المفاهيم، تصاغ في صورة قواعد أو مبادئ أو قوانين أو معادلات، وهذه العلاقات تمثل طبقة ثالثة في هرم المعرفة. وإذا كانت الحقائق والمفاهيم والقوانين هي مستويات وصفية تعبر عن واقع الأشياء كما هي، فإن الذي يفسر ذلك هو مستوى آخر من مستويات البناء المعرفي للعلم يمثل رأس الهرم وهو النظريات.

وثمة طريقة أخرى في التعبير عن مستويات المعرفة العلمية في أي علم من العلوم. وفي هذه الطريقة نعبر عن أبسط أشكال المعرفة بمصطلح البيانات data التي تقابل الحقائق في هرم المعرفة. ومجموعة البيانات ذات العلاقة بموضوع واحد تشكّل ما نسميه (المعلومات)، وتوظيف المعلومات يحقق (المعرفة)، وأخيراً فإن الغرض من تطبيقات المعرفة وتوظيفاتها هو الرُقْي بالذات والمجتمع نحو آفاق مفتوحة من رؤية العالم وما تمثله من (حكمة).

وفيما يأتي خريطة موضوعات البناء الفكري



ثالثاً: خريطة أدوات البناء الفكري ووسائله

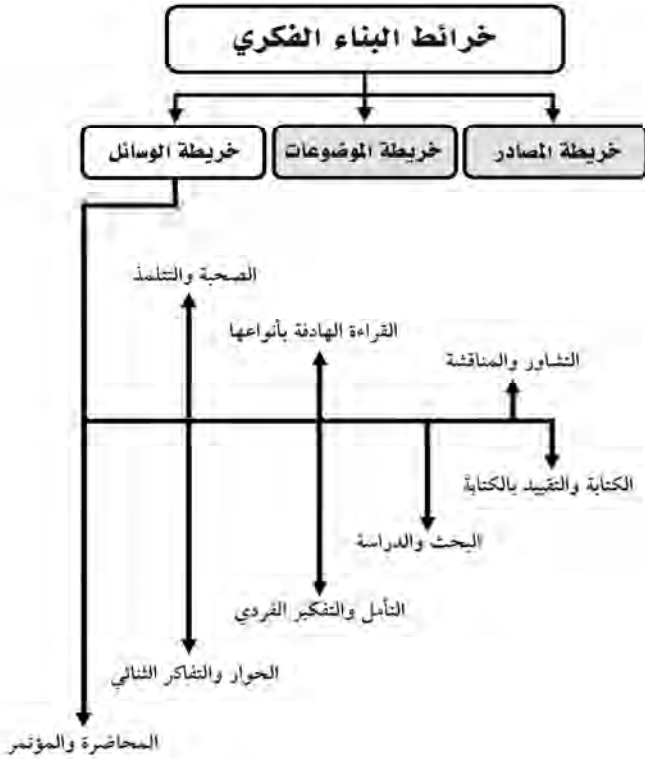
أدوات البناء الفكري ووسائله متعددة، وتُعدّ القراءة النشاط الأساسي لتغذية العقل البشري، والوسيلة الأكثر أهمية للتعلم والتشكيل الثقافي والفكري للفرد؛ القراءة القاصدة، الهادفة، المبرجة؛ القراءة بأنواعها ومهاراتها؛ القراءة المتأنية، المتدبّرة، المتفكّرة، المتذكّرة؛ القراءة الكلية والقراءة النقدية؛ القراءة التي تضع جزئيات النص المقروء ضمن إطاره المرجعي، وتضع الإطار المرجعي للنص ضمن النظام المعرفي الذي ينتسب إليه، وهكذا.

والكلمة الأولى من كتاب الله الأخير إلى البشرية هي فعل الأمر: اقرأ، وأن الأمر بها يأتي مرتين متتاليتين؛ مرّة لقراءة الخلق باسم الله، ومرّة لقراءة الوحي المكتوب بالقلم: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤﴾ [العلق: ١ - ٥] وأن تبقى كلمة اقرأ عهداً لله للبشر الباقي إلى قيام الساعة، تقول للناس: انتهت عهود الأمية بعد نزول هذه الآيات. فما يقرأ إذاً هو ما يشاهد ويدرس من أصناف الخلق الإلهي، وخلق الإنسان من عَلَقٍ نموذجٌ لما يخلق. وما يقرأ كذلك هو ما تنزل من وحي يكتب بالقلم ويكون وسيلة ليتعلم الإنسان ما لم يعلم.

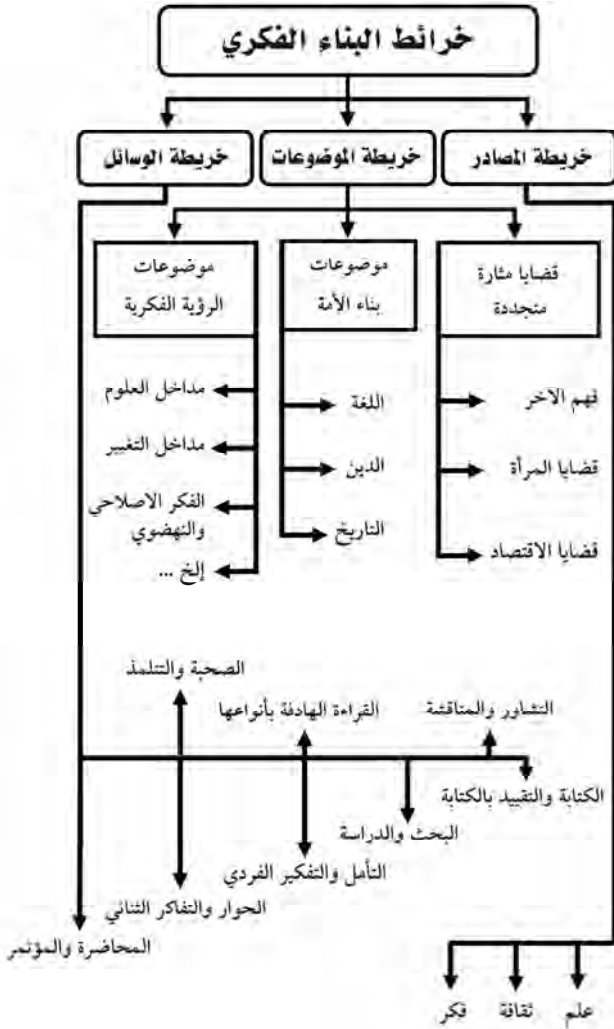
وتستدعي علاقة البناء الفكري بالقراءة أن تقرأ بعض النصوص وبعض الكتب مرة بعد مرة. ويمكن استكمال أهداف القراءة لنصّ معين وتحقيق الفائدة من قراءته، عندما يُقرأ معه ما يرتبط به من نصوص أخرى من مصادر المعرفة المشار إليها سابقاً، فتحدث عمليات عديدة من التذكر، والتفكير، والموازنة، والمقارنة، والتكامل. وعندها يضيف القارئ إلى بنائه الفكري فكرة أو جملة من الأفكار، ولو انتقل القارئ من القراءة إلى الكتابة فإنه يكون قد قيّد الأفكار وضبطها ونظمها، وأصبحت إنتاجاً معرفياً مكتوباً ومادة للقراءة له ولغيره من القراء.

فالقراءة وسيلة من وسائل البناء الفكري، وهي أساس لمعظم الوسائل الأخرى التي أشير إليها بإيجاز، من تفكير وتفكير، وتذكر وتذاكر، ومحاضرة وندوة ومؤتمر، وبحث ودراسة. ومن الوسائل

المهمة صحة العلماء، والمفكرين، والمصلحين، والفلاسفة، وأقطاب الصوفية، وأصحاب الخبرات المتميزة، والرحلة للقائهم، والاستماع إليهم، والتلمذ عليهم. والأنبياء والرسل في المدى الأطول من تاريخ البشر كانوا هم مصدر العلم والهدى، ثم توارثت الأجيال تعاليم الأنبياء والرسل حتى يومنا هذا، فكان منها مذاهب في الفقه، ومدارس في الفكر، وطرق في السلوك. وفيما يأتي رسم تخطيطي لخريطة وسائل البناء الفكري:



وفيما يأتي رسم تخطيطي مركب لخرائط مصادر البناء الفكري وموضوعاته ووسائله:



رابعاً: خريطة قياس البناء الفكري

إن عملية تقويم كفاءة أي برنامج لا تقل عن عملية بناء البرنامج وتنفيذه. فما الأداة المناسبة لاستخدامها في هذا تقويم كفاءة برنامج في البناء الفكري؟ ومتى نستخدمها؟ وما الإطار المرجعي اللازم لتحديد المستوى المنشود لنوعية البناء المعرفي، أو مقداره، عند فرد أو فئة أو مجتمع؟ هل نستطيع أن نبني مقياساً مقنناً في البناء الفكري؟ ما الخصائص الكيفية والكمية التي يمكن أن نستخدمها في هذا القياس؟ وما وحدات القياس التي تصلح لهذا الغرض؟

إنّ الثقافة العربية الإسلامية المعاصرة في بُعدها العلمي-التعليمي "الأكاديمي" تفتقر إلى أدوات القياس المقننة في معظم مجالاتها، وأكثر الحلقات ضعفاً في مجال القياس هو القياس النفسي والعقلي. وقد تكون بلادنا قد اكتسبت شيئاً من الخبرة الذاتية في تطوير عناصر المنهاج التعليمي في الأهداف والمحتوى والأساليب، إلا أن الخبرة في العنصر الرابع؛ أي التقويم كانت هي الحلقة الأضعف.

وفي سياق الحديث عن البناء الفكري نقترح التأكيد على الحاجة الماسة إلى نوعين من المقاييس والاختبارات هما: مقاييس العمليات الفكرية، أو درجة ممارسة العمليات أو المهارات العقلية لدى فرد أو فئة من الأفراد، مقاييس درجة امتلاك محتوى محدد من البنية الفكرية بحسب الخريطة الفكرية التي تتوزع فيها عناصر هذا المحتوى.

وللتمثيل على مقاييس الأداء الفكري، يمكن أن نستحضر الاختبارات والمقاييس المستعملة في قياس مهارات التفكير العلمي، أو مهارات التفكير المنطقي، أو مهارات التفكير الإبداعي، أو النقدي، أو مهارات التفكير "من خارج الصندوق" أو القدرة على حل المشكلات... إلخ.

صحيح أن المرجعيات الكمية والكيفية لمعظم هذه الاختبارات هي مرجعيات علم النفس وعلم التربية في مصادرها الغربية، وأن جهوداً مقدرة قد بذلت في هذا المجال من أجل تكييف هذه الاختبارات من تطبيقها في مجالات التحصيل العلمي والتعليمي في بلادنا، لكن أكثر هذه التطبيقات كانت في مجال اللغات والرياضيات والعلوم، وقليل منها في مجالات العلوم الاجتماعية، وأقل من القليل في مجال دراسات العلوم الإسلامية والفكر الإسلامي.

لقد كان للعقل المسلم قصب السبق في كثير من ميادين التفكير المنهجي، وتطوير نماذج الفكر، وأدوات تقويم الخبرة والكفاءة في التفكير والأداء، فقد عُرفت علوم الحديث النبوي الشريف ولا سيما علوم: العلل، والرواية والدراية، والرجال، والجرح والتعديل، ما أصبح بعد ذلك علوماً نقدية بامتياز، وكان علم أصول الفقه علماً منهجياً بامتياز، ونمت منهجية التفكير العلمي المعتمدة على المشاهدة والقياس والتجريب، وتطورت في المجتمع الإسلامي قبل أن يعرفها

أي مجتمع آخر، وتميز ابن خلدون مثلاً باختبار الروايات التاريخية في ضوء الطبائع النفسية والوقائع الميدانية، كل ذلك يؤكد أنَّ العقل المسلم ليس أقل من غيره من العقول على تطوير مناهج التفكير ونماذج الفكر وأدوات القياس.

يتضمن القرآن الكريم والسنة النبوية مصادر في غاية الغنى لتطوير أدوات لضبط منهجية التفكير، واستنباط الأفكار وصياغتها، وإحسان عرضها وممارستها.

خريطة مقترحة لصياغة فقرات مقياس البناء الفكري

- ١- الألفة بمفردات وعناوين وأسماء لفئات المصادر
أ- كتب في العلوم الإسلامية.
ب- مصادر لمشاريع أو مدارس فكرية.
ت- أسماء شخصيات فكرية.
ث- ثقافة عامة عن مجريات الأحداث في الواقع.
ج- ... إلخ
- ٢- معرفة بأبرز المضامين والخصائص الواردة أعلاه (في حدود مائة كلمة مثلاً)
أ- كتب.
ب- شخصيات.
ت- مؤسسات ومدارس فكرية.
ث- وقائع وأحداث وقضايا معاصرة.
- ٣- ممارسة التفكير
أ- في مستويات التفكير: الفهم، والتحليل، والتركيب، والتقويم.
ب- في أنواع التفكير: المستقبلي، والسنني، والتكاملي، والمقاصدي...
٤- برنامج في النمو
أ- وعي على مواقع الحاجة إلى النمو في عناصر البناء الفكري.
ب- تحديد كيفية استكمال الحاجة.
ت- خطة زمنية لاستكمال هذا النقص.
- ٥- ... إلخ.

خامساً: خرائط تاريخ الأفكار

يُعنى التاريخ بدراسة الأحداث التي يمر بها الأفراد والمجتمعات في حقبة من الزمن، بالإضافة إلى دراسة الظواهر الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والطبيعية وغيرها، ويمكن أن يصدق ذلك على دراسة الأفكار ذاتها بما فيها من قيم ومعتقدات، فأحداث التاريخ تعبير عن أفكار أفراد وحركة هذه الأفكار وانتشارها في الزمان والمكان وتجلياتها في ما يقع من أحداث. ومن المفيد الوقوف على التيارات الفكرية التي نشأت أو سادت في المراحل الزمنية المتلاحقة، لمعرفة نقاط الالتقاء أو التمايز بين أفكار هذه التيارات، وأثرها في التشكيل الثقافي والحضاري لواقع الأمة، في تلك المراحل الزمنية. وهذا ما يدرس عادة ضمن مبحث له أهمية خاصة بعنوان: علم تاريخ الأفكار.

إن وحدات "علم تاريخ الأفكار" هي الوحدات الفكرية، التي يسعى المتخصص في هذا العلم إلى اكتشافها، وتتبع ما يطرأ من ارتباط أو انفصال فيما بينها، مع ملاحظة أن الوحدات الفكرية تتصف بقدر من الثبات، إلى درجة تمكن الباحثين من استخدامها في صورة وحدات تحليل، في قيام وانحيار الثقافات والحضارات البشرية.^(١)

(١) مثال على الوحدة الفكرية: فكرة التطور العضوي أو نظرية داروين، وقد بدأت في صورة نظرية لتفسير نشوء الأنواع الحية، لكن الفكرة وجدت انتشاراً واسعاً في العلوم الأخرى، وهاجرت من موقعها في علم البيولوجيا، إلى علم الاجتماع وعلم السياسة، فعرفت الداورينية الاجتماعية والداروينية السياسية.

ومن المهم لكل صاحب اختصاص أن يتتبع تطور الأفكار في مجال اختصاصه، فحالة المعرفة في ذلك التخصص، ليست انبثاقاً فجائياً، وإنما تشكلت عبر أحداث متتابعة على مر القرون، وكانت هذه الأحداث أفكاراً تجسدت في صورة وقائع دَوَّنَها التاريخ.

وللتمثيل على حقل السياسة نشير إلى موسوعة للأفكار السياسية صدرت في فرنسا، وأرَّخت بقدر من التفصيل للأفكار السياسية في أوروبا من اليونان إلى القرن الثامن عشر. وما الأفكار السياسية المعاصرة إلا مراحل لاحقة لتطور تلك الأفكار. وقد تُرجمت هذه الموسوعة إلى العربية ونُشرت في ثلاثة مجلدات بعنوان تاريخ الأفكار السياسية.^(١) ويوضح الكتاب الفرق بين المذاهب السياسية والأفكار السياسية، فتاريخ المذهب جزء من تاريخ الأفكار، وتاريخ الأفكار لا ينفصل عن تاريخ المؤسسات وتاريخ المجتمعات وتاريخ الوقائع والمذاهب الاقتصادية، وتاريخ الفلسفة، وتاريخ الأديان، وتاريخ الآداب، وتاريخ التقنيات.^(٢)

سادساً: خرائط الفكر الجغرافي، وجغرافية الفكر

ينصرف مصطلح الفكر الجغرافي إلى المعرفة التي اكتسبها الإنسان عن الأرض ودَوَّنَها في صورة علوم، وهي علوم يعود تاريخها

(١) توشار، جان. تاريخ الأفكار السياسية، ترجمة: ناجي الدراوشة، دمشق: دار التكوين، ٢٠١٠م، ثلاثة مجلدات.

(٢) المرجع السابق، ج ١، ص ٦.

المعروف إلى أكثر من أربعة آلاف سنة.⁽¹⁾ ويشمل المصطلح كذلك الأفكار والنظريات الفلسفية التي تختص بتشكيل الأرض وظهور أشكال الحياة عليها. لكن الدراسات أخذت في القرن العشرين تعطي أهمية كبرى للحياة البشرية ومتطلباتها في الفضاء المكاني، أكثر من تفاصيل المكان نفسه، وظهرت مفاهيم محدودية الموارد على الأرض، وتزايدت دراسات الفقر وتعمق الوعي على التدمير، الذي أخذ يصيب البيئة الطبيعية مع الإسراف في استخدام الموارد وإنتاج الملوثات، واحتلت الظواهر الاجتماعية والاقتصادية لحياة الإنسان أولوية في الفكر الجغرافي، ودراسات البيئة الطبيعية.

وإذا كان الفكر الجغرافي يدرس موضوعات علم الجغرافيا والفروع العديدة لهذا العلم، ومن هذه الموضوعات قضايا العلاقة التبادلية بين الإنسان والبيئة الجغرافية، فقد أخذت هذه العلاقة مذاهب شتى، وظهر فيها كثير من المفاهيم والمصطلحات، ومنها على وجه التحديد مصطلح جغرافية الفكر.

والدراسات الحديثة في الموضوع ترى أن التنوع والاختلاف في الأبنية الفكرية للشعوب والأمم في البيئات الجغرافية المختلفة، ليس بالضرورة نتيجة أثر جغرافية المكان وما تتضمنه من مناخ وتضاريس، وإنما نتيجة عوامل أخرى.

(1) Rana, Lalita. *Geographical Thought: A Systematic Record of Evolution*, New Delhi (India), Concept Publishing Company 2008, p.5.

من ذلك ما تضمنه كتاب "جغرافية الفكر" المنشور عام ٢٠٠٢م،^(١) ويعد بحثاً عميقاً في علم نفس الثقافات. وقد حاول المستعمرون الأوروبيون الذين سيطروا على مساحات شاسعة من العالم أن يستعمروا عقول الشعوب بعد استعمار أرضها، ووظّفوا من أجل ذلك نتائج الدراسات النفسية والاجتماعية التي كان العلماء في أوروبا وأمريكا ينشغلون بها في نهاية القرن التاسع عشر، ومطلع القرن العشرين، لا سيما فيما يختص بتطور القدرات العقلية البشرية ومقاييس الذكاء.

وتتوزع موضوعات جغرافية الفكر على فروع مختلفة من الجغرافيا البشرية، مثل الجغرافيا السياسية والجغرافيا الثقافية، فالجغرافيا السياسية مثلاً تختص بدراسة تأثير الجغرافيا [البيئة الجغرافية] في الأفكار والممارسات السياسية، وأما الجغرافيا الثقافية فهي تبحث في أهمية الجغرافيا في تفسير الظواهر الإنسانية. وثمة كتب ودراسات متخصصة في هذا الموضوع، ونكتفي بالتنويه بالكتاب الذي ألفه مايك كرانغ بعنوان "الجغرافيا الثقافية"، وقد ترجم ونشر بالعربية.^(٢)

ومن المهم أن نتذكر في هذا الشأن مفهوماً مركزياً في الدراسات الفلسفية والإعلامية والدينية هو مفهوم رؤية العالم Worldview،

(1) Nisbett, Richard E. *The Geography of Thought: How Asians and Westerners think Differently and Why*, London: Nocholas Brealey Publishing, 2003.

(٢) كرانغ، مايك، الجغرافيا الثقافية: أهمية الجغرافيا في تفسير الظواهر الإنسانية، ترجمة سعيد متناق، سلسلة عالم المعرفة رقم ٣١٧، يوليو ٢٠٠٥م. ص ٨.

وكيف أن هذه الرؤية للعالم تختلف باختلاف البيئات الثقافية والمستوى الحضاري، وأنماط التفكير السائدة في المجتمع، لا سيما أنماط التفكير الديني. ويعد موضوع رؤية العالم فصلاً في تاريخ الأفكار، والتوجهات الإيديولوجية المتعددة مثل التوحيد، والوثنية، والطبيعية، والربوبية، ووحدة الوجود. ومن الواضح أن الدلالات التي يشير إليها مصطلح "رؤية العالم" تتداخل بشدة مع المعتقدات الفلسفية، والدينية. فالمصطلحات الدينية مثل: الإيمان والعقيدة والتصور الكلي تعبر عن مجموعة الأفكار والمفاهيم والمعتقدات التي تجيب عن الأسئلة الوجودية الكبرى التي يحاول مصطلح رؤية العالم التعرض لها.

سابعاً: ضوابط قبول الأفكار

إذا كان الفكر صفة للإنسان منذ خلقه الله سبحانه وجعله خليفة في الأرض، وزوّده بالقدرة على اكتساب الوعي بالذات وبالمحيط الخارجي، وبالحرية في الاستقامة أو الانحراف، وكانت مسؤولية الإنسان أمام الله يوم الحساب مسؤولية فردية، فإنه كان من الطبيعي أن تختلف قدرات الإنسان على الفهم والإدراك، وتختلف مواقفه في الطاعة والمعصية.

وفي النموذج الإسلامي كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنموذجاً في توضيح مفهوم القبول والمحاورة؛ إذ كان في حياته مع الناس هو الحجة

في قبول الأفكار المختصة بالتشريع الإلهي في العقائد والعبادات. ولكنه يراجع رأيه ويقبل فكرة من أفكار أصحابه في مسألة تتعلق بالخبرة في أمور الحياة، ومطلوب منه أن يشاور في هذه الأمور.

وتتفاوت معايير قبول الأفكار وضوابطها بين الناس تفاوتاً كبيراً. وقد عرف الاختلاف في الأفكار في الفِرَق والمذاهب الدينية والدنيوية. وعلى صعيد الفكر الإسلامي، فإنَّ ثمة مبادئ كلية يجتمع على قبولها وتبنيها كثير من الناس، من مختلف فئات المجتمع، وتمثل هذه المبادئ الكلية مرجعيةً لقبول الأفكار أو رفضها. لكننا نجد اختلافاً في تفسير بعض النصوص القرآنية، وتسمح ظنيّة الدلالة في معاني كثير من الآيات، باختلاف الاجتهاد في دلالة هذه النصوص. كما نجد اختلافاً في الأفكار المستمدة من بعض الأحاديث النبوية الشريفة، حتى الصحيحة منها، نتيجة للاختلاف في فهم الواقع، وتنزيل دلالة النص على هذا الواقع.

وعند الحديث عن ضوابط قبول الأفكار، يأتي موضوع الحرية الفكرية وضوابطها وحدودها. وهو أمر يختلط غالباً بأنواع أخرى من الحريات، منها حرية الاعتقاد، وحرية التعبير، وفيه من التفاصيل والآراء المتعددة، ما يمكن أن يكشف عن مذاهب في الفكر، تختلف عما ألفتناه من مقررات فقهية، ولكن الضابط الأكبر في معالجة ذلك ليس الأحكام الفقهية الجزئية التي تأتي من باب الفتاوى، وإنما

الضابط الأكبر هو ما يقتضيه تحقيق المقاصد العامة للشريعة الإسلامية
في حق الفرد وحق الأمة وحق الإنسانية.^(١)

(١) البحوث والمؤتمرات والندوات التي أنجزت في مجال الحريات الفكرية كثيرة، نكتفي
بالإشارة إلى واحدة منها، وهي:
- عطية، جمال الدين. "ضوابط الحريات الفكرية"، مجلة المسلم المعاصر، العدد ٩٩
السنة الخامسة والعشرون، يناير-مارس ٢٠٠١م، ص ١٦٧-١٩٦.

الفكر واللغة

مقدمة:

مهارات اللغة أربع هي: الاستماع، والكلام، والقراءة، والكتابة، ولا يمكننا أن نتخيل كاتباً كتب شيئاً عن الفكر، دون أن يفكر فيه؛ أي دون أن يمرّ تفكيره في واحدة أو أكثر من مهارات اللغة المشار إليها.

ويرتب اللغويون هذه المهارات الأربع بالترتيب المشار إليه من حيث بناء هذه المهارات وتطورها عند الإنسان، في بنائه لجهازه اللغوي، والفكري. ولا خلاف على أن الاستماع والقراءة وسيلتان لتطوير البنية الفكرية عند الإنسان، لكننا لا نعرف عن وجود هذه البنية إلا عندما يتحدث الإنسان أو عندما يكتب.

واللغة هي القالب الذي ينصبّ فيه الفكر، والفكر هو المضمون الذي يحتويه ذلك القالب اللغوي، والمضمون يأخذ شكل القالب ويتحدد بحدوده في وضوحه وجودته أو غموضه وردائه، مع ذلك فإنّ مما لا شك فيه أن علاقة اللغة بالفكر علاقة تبادلية وتكاملية؛ تبادلية من حيث إنّ أحدهما يؤثر في الآخر، وتكاملية من حيث إنّ أحدهما يحتاج إلى الآخر، فمقدار غنى أحدهما يكون إغناء الآخر، وكل منهما يسهم في إغناء الآخر، فاللغة تخدم الفكر حين تعين الإنسان على التعبير عن فكره وإخراجه إلى حيز الوجود اللغوي،

فتصبح الفكرة موضوعاً للتواصل. وفي الوقت نفسه يخدم الفكر اللغة حين يعينها على اختيار اللفظ الأكثر دقة وتعبيراً على المعنى، ويغني اللغة بالمعاني والدلالات التي تحتاج إلى ألفاظ ومصطلحات جديدة، فالفكر يصنع اللغة، ويصنع نفسه بها.

أولاً: البعد التاريخي لعلاقة الفكر واللغة

يبدو أن الاهتمام بعلاقة الفكر واللغة يعود إلى عهود سحيقة من تاريخ البشرية، فإذا أخذنا بالمصادر الدينية، يكفينا أن نتفكر فيما ورد في القرآن الكريم، الذي يشير إلى هذه العلاقة بصورة مباشرة في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]. والله سبحانه ذكر حقيقة خلق الإنسان، وأتبعه مباشرة بحقيقة تعليمه البيان، في آيتين متتاليتين: ﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن: ١-٤] كما ربط سبحانه اللسان بالبيان في آية واحدة، هي قوله جلّ جلاله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

أما في المدونات البشرية للتاريخ، فإنّ ثمة نصوصاً مهمة ترجع إلى عهد سقراط وأرسطو، ومن جاء بعدهما من فلاسفة اليونان والرومان. تناقش أسئلة تقليدية منها: أصل اللغة وانتظام اللغة، وبنية اللغة. وحتى اللفظ (logos) الذي اشتهر في تاريخ الفكر الغربي، فإنه استخدم ليبدل في الوقت نفسه على اللغة والعقل والفكر.^(١)

(1) Haris, Roy and Taylor, Talbot. *Landmarks In Linguistic Thought*, Volume I: The Western =

وفي التراث الإسلامي فيض من النصوص التي تتحدث عن أصل اللغة البشرية وعلاقتها بأشكال التفكير والفهم والإدراك، والتفاصيل الدقيقة في بنية اللغة العربية وتطور علومها، ودورها في حمل مضامين القرآن الكريم. ومن ذلك الأعمال المنسوبة إلى أبي الأسود الدؤلي، وابن أبي إسحق الحضرمي، وعيسى بن عمر، والفراهيدي، وسيبويه، وابن جني، والجاحظ، والجرجاني.

واللغات عند ابن خلدون ملكات صناعية؛ أي يجري بناؤها وتعلمها بالاكتساب،^(١) والملكات تتحقق للإنسان بتكرار قيامه بالفعل حتى تصبح الملكة صفةً راسخة. وهذه الملكة هي التي تكسب المتكلم باللغة والمستمع إليها، قدرة يميز بها الصواب والخطأ، اعتماداً على ما جرى عليه معهود الجماعة اللغوية، دون حاجة إلى القواعد.

وفي بيان العلاقة الوجودية بين الفكر، والعلم، واللغة، نستذكر جهود كثير من علماء المسلمين في التمييز بين الوجود العيني، والوجود

= Tradition From Socrates To Saussure (History of Linguistic Thought), Vol. 1, Routledge; 2 edition, 1997, pp. 21-28.

والكتاب يأخذ نصوصاً من أعمال الفلاسفة السابقين ويناقشها بقدر من التفصيل، من حيث بيان دور اللغة في الفكر الإنساني والمجتمع. ويبدأ بطبيعة الحال بمناظرات سقراط التي دونها تلميذه أفلاطون، ثم ينتقل إلى أعمال أرسطو، ويشير إلى الكتاب المقدس Bible، ثم يأخذ في عرض جهود أعلام الفكر اللغوي في القرون الوسطى التاسع عشر، ويواصل في الجزء الثاني من الكتاب مناقشة الجهود التي تمت في القرن العشرين.

(١) وبذلك يفند ابن خلدون الرأي القائل بالسليقة والوراثية، ودور الجنس والعرق في تحديد طبيعة اللغة أو إتقانها.

الذهني، والوجود اللساني، ونختار من هذه الجهود قول أبي حامد الغزالي: "ف نقول في بيان حدّ الاسم وحقيقته: إنّ للأشياء وجوداً في الأعيان، ووجوداً في الأذهان، ووجوداً في اللسان؛ أما الوجود في الأعيان فهو الوجود الأصلي الحقيقي، والوجود في الأذهان هو الوجود العلمي الصوري، والوجود في اللسان هو الوجود اللفظي الدليلي." (١)

ثانياً: البيان بين الفكر واللغة

البيان لفظ أثير في القرآن الكريم، ورد مع مشتقات "بان" في نحو مائتين وسبعة وخمسين موقِعاً (٢٥٧) بصيغ اسمية وفعلية عديدة، فالقرآن الكريم بَيَّانٌ، وَتَبَيَّنَ، كتاب مبيّن: وقد أنزل بِلِسَانِ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ وآياته بينات، وكلُّ رسول أرسله الله جاء بلسان قومه ليبيّن لهم... وهكذا.

والتفكّر في الدلالات التي وردت فيها مواقع البيان في القرآن الكريم تؤكد أنه ليس طلاسماً وأساطير مجهولة المعاني والدلالات، بل هي آيات "بيّنات" واضحة ظاهرة مفهومة، جاءت باللسان الذي يفهم أصحابه معانيه، ومع ذلك فقد جاءت في مستويات من الفصاحة بلغت حدّ الإعجاز.

(١) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. المقصد الأسمي في شرح معاني أسماء الله الحسنى، تحقيق: بسام

عبد الوهاب الجابري، قبرص: الجفّات والجابري، ١٩٨٧م، ص ٢٥.

وكان الإمام الشافعي من أوائل من أسهب في الحديث عن البيان القرآني، وذلك في كتابه الأصولي الفذّ «الرسالة»، فبدأه بقوله: "والبيان اسم جامع لمعاني مجتمعة الأصول، متشعبة الفروع." ^(١) ثم فصل البيان للأحكام في القرآن في خمس مراتب، بعضها أوضح بياناً من بعض.

وفي تفصيل هذا المعنى وصلته بطرق الدلالة اللغوية عليه يضع الجاحظ الدلالة في خمسة أصناف، فيقول: "والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى... وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء، لا تنقص ولا تزيد: أوّلها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقّد، ^(٢) ثم الخطّ (أي الكتابة)، ثم الحال التي تسمى نصبةً." ^(٣) فجمع بذلك علاقة الفكر والمعاني بأصناف اللغة منطوقة - مسموعة، ومرئية ومحسوبة، ومكتوبة.

وقد أورد الخطيب البغدادي حديث النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "قِيدُوا الْعِلْمَ بِالْكِتَابَةِ" بست روايات بألفاظ متقاربة. ومنها رواية عن عبد الله بن عمرو: "أنّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "قِيدُوا الْعِلْمَ" قلت: يا

(١) الشافعي، محمد بن إدريس. الرسالة، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، بيروت: دار الكتب العلمية، (د.ت.)، ص ٢١.

(٢) لغة الحساب بإشارات أصابع اليد تسمى حساب اليد.

(٣) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. البيان والتبيين، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط٧، ١٩٨٨م، ج١، ص ٧٦

رسول الله وما تقييده؟ قال: الكتاب." (١)

فالكتابة، لها مقام متميز في فنون البيان اللغوي، ويُعلي ابن خلدون من شأن الكتابة، فيشير إلى أن الكتابة من الصناعات الشريفة. ويقول: "وأما الكتابة وما يتبعها من الوراقة فهي حافظة على الإنسان حاجته ومقيدة لها عن النسيان، ومبلغة ضمائر النفس إلى البعيد الغائب، ومخلدة نتائج الأفكار والعلوم في الصحف، ورافعة رتب الوجود للمعاني..." (٢)

ثالثاً: نظريات العلاقة بين الفكر واللغة

الفكر فاعلية نفسية واجتماعية ولغوية، ولذلك فإنه موضوع لدراسات علم النفس وعلم الاجتماع وعلم اللغة، فضلاً عن تطبيقات هذه العلوم في علوم أخرى عديدة، مثل الإعلام والسياسة والاقتصاد، إلخ. وقد كانت العلاقة بين الفكر واللغة موضوعاً مهماً من موضوعات الفلسفة، منذ بدايات عهدها، فالمنطق وهو فرع من فروع الفلسفة هو علم دراسة التفكير، واللغة أداة الإفصاح عن الفكر وهو المعاني التي يقود إليها التفكير. وتأخذ اللغة مكاناً بارزاً في

(١) الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت. تقييد العلم، صدره وحققه وعلق عليه: يوسف العش، حلب، سورية: دار الوعي، ١٩٧٥م، ص ١١٦.

(٢) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد. مقدمة ابن خلدون، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٤م، ج ٢، ص ٨٤٦.

دراسات علم الاجتماع وعلم النفس ونظريات هذين العلمين على وجه التحديد. والاطّلاع على المقولات الإجمالية لهذه النظريات قد يكون مفيداً إذا أمكن وضعها في البنية الفكرية المستقرة للإنسان المسلم، القادر على التعامل معها بنظرة تحليلية نقدية، وفق منهجية التكامل المعرفي التي يستمدّها من رؤية العالم الإسلامية، وهذا ما قام به عالم النفس الإسلامي "مالك بدري" في عدد من دراساته في علم النفس، وممارساته في العلاج النفسي. وهو في موضوع العلاقة بين اللغة والفكر لا يختلف كثيراً مع علماء النفس الآخرين في التأكيد على وجود رابطة قوية بين الفكر الإنساني واللغة؛ ذلك: "أن اللغة عند الإنسان ليست وسيلة للتخاطب والاتصال فحسب، بل هي في الحقيقة النظام الأساسي الذي يستخدمه الإنسان في التفكير."^(١)

ملخص لعدد من نظريات العلاقة بين الفكر واللغة

الرقم	النظرية	اسم العالم	وفاته	مقولات النظرية
١-	السلوكية	واطسون- سكنر	١٩٥٨ ١٩٨٥	اللغة نوع من السلوك، يكتسبه الفرد عن طريق التقليد والتعزيز والتكرار
٢-	الإبستمولوجيا التكوينية	بياجيه	١٩٨٠	اللغة تاريخ الأفكار، تنمو اللغة من النمو البيولوجي، الفكر قبل اللغة

(١) بدري، مالك. التفكير من المشاهدة إلى الشهود؛ دراسة نفسية إسلامية، مرجع سابق، ص ٢٧-٢٩.

٣-	الاحتمية والنسبية اللغوية	ساير- وورف	١٩٣٩ ١٩٤١	وظيفة اللغة: التواصل والتكرار، اللغة تحدد التفكير، بنية النظام اللغوي تحدد رؤية العالم
٤-	الوقف البيولوجي المشترك	تشموسكي	...	اللغات لها مستويات سطحية مختلفة ومستوى عميق متشابه، أساس فطري مشترك لدى البشر

ويبدو أن النظريات المتعاقبة التي حاولت فهم العلاقة بين اللغة والفكر، سوف تستمر، وليس من المتوقع أن تحسم الموضوع نظرية واحدة، ذلك أن العلماء الذي يبحثون الموضوع يأتون من خلفيات مختلفة تنتمي إلى علوم الفلسفة والاجتماع والنفوس. وأن التحليل النظري والتجريب العملي في الموضوع، لا يخلو من الاعتماد على عناصر مفيدة في فهمه، لكنها في الوقت نفسه غير كافية، فكل نظرية تفسر جانباً من الموضوع، ولا تفسر الموضوع كله. ويبدو أن الموضوع سيبقى مفتوحاً للاجتهد والحوار والجدل، وسوف يواصل علماء الطبيعة وعلماء النفس وعلماء الاجتماع بحثهم في مسألة العلاقة بين الفكر واللغة سواءً أكانوا ينطلقون من فلسفة طبيعية واجتماعية بحتة دون النظر إلى هداية الوحي الإلهي، أم كانوا يأخذون بالحسبان هذه الهداية ويودون معرفة المزيد من العلم في ظلال هذه الهداية. لكن الذي نستطيع الاطمئنان إليه في خاتمة الحديث عن العلاقة بين الفكر واللغة، مجموعة من المبادئ التي ربما لا يقع حولها خلاف كبير:

- ليس من السهل أن نتخيل فكراً بشرياً دون تعبير لغوي عنه، وليس من السهل أن نستبعد أثر الفكر في إغناء اللغة، فالعلاقة بين الفكر واللغة علاقة تبادلية تكاملية.

- نحن نؤمن أن الله سبحانه خلق الإنسان الأول؛ آدم أبا البشر، ثم زوده بالملكة اللغوية بكيفية معينة ليس من السهل أن نتعرف عليها بقدر من اليقين.

- الملكة اللغوية جزء من الخلق الإلهي الفطري الموروث "التصميم" في الكيان البشري، وهي ترتبط بأدوات السمع والبصر والنطق، وكلها مهياًة للقيام بأدوار تتصل بالغة والفكر. ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

- من المعقول أن نتخيل أن اللغة البشرية كانت في أول عهدها لغة واحدة، ثم توزع الناس في مناطق جغرافية منعزلة، فتباعدت اللهجات، ثم تطورت إلى لغات متميزة.

- الإنسان في كل العصور كان يتعلم اللغة ويعبر بها عن فهمه لما يحيطه به، عن طريق ما يسمعه في البيئة اللغوية التي ينشأ فيها.

رابعاً: الفكر والتّرقى في المهارات اللغوية

اللغة وسيلة تواصل وتعبير وتفكير. وبقدر ما يملك الفرد من مفردات اللغة وتراكيبها ونصوصها، يكون لديه المرونة في صياغة أفكاره والتعبير عنها بوضوح، ونفادٍ حُجَّةٍ، وقوة تأثير. ويكتسب

الإنسان كثيراً من عناصر الملكة اللغوية من البيئة الاجتماعية الغنية التي ينشأ فيها. ولكنَّ وَعِيَهُ على ضرورة النمو والترقي في اكتساب هذه العناصر، يزيد في إمكانية استفادته من تلك البيئة، ويجفزه على استخدام وسائل متعددة في تحقيق هذا النمو والترقي.

وفي حالة اللغة العربية يعدّ تعلّم القرآن الكريم تلاوة وحفظاً من أفضل الطرق والوسائل لتقويم اللسان وضبط الألفاظ وإغناء الأفكار، والترقي بمعاني الكتابة وألفاظها. وقد أوضح ابن الأثير أثر القرآن الكريم في تنمية الملكة اللغوية في عدد من المواقع في كتابه "المثل السائر"، لعل أكثرها وضوحاً قوله: "إذا عَرَفَ مواقع البلاغة وأسرار الفصاحة المودعة في تأليف القرآن الكريم، اتَّخَذَهُ بَحْرًا يستخرج منه الدرر والجواهر، ويودعها مطاوي كلامه، كما فعلتُهُ أنا فيما أنشأتُ من المكاتبات، وكفى بالقرآن الكريم وحده آله وأداة في استعمال أفانين الكلام."^(١) ومن ذلك ما أورده عن حفظ القرآن الكريم؛ إذ يقول: "الكاتب إذا أحبَّ الترقِّي إلى درجة الاجتهاد في الكتابة، فإنَّه يحتاج إلى أشياء كثيرة، قد ذكرتها في صدر كتابي هذا، إلا أن رأسها وعمودها وذروة سنامها ثلاثة أشياء، هي حفظ القرآن الكريم، والإكثار من حفظ الأخبار النبوية، والأشعار."^(٢)

(١) ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله بن محمد. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر، (د. ت.)، ص ٦١.

(٢) المرجع السابق، ص ١٠٢.

والتفاعل الفكري بين الناس يلزمه استعمال وسائله المختلفة التي تؤدي كل وسيلة دوراً لا تؤديه الوسيلة الأخرى. فهذا التفاعل مثلاً لا يكفي فيه الاقتصار على المشافهة وإلقاء المحاضرات، ولا يكفي فيه الاقتصار على الكتابة وتبادل النصوص المكتوبة، فالمشافهة والمكاتبة أمران متكاملان؛ لأنّ كلاً منهما يؤدي دوراً مختلفاً عن الآخر. وتشير دراسات علم اللغة التطبيقي وعلم اللغة الاجتماعي إلى أنّ أصل جميع اللغات هو الخطاب الشفاهي. ومع أنّ الأعراق البشرية طورت آلاف اللغات، فإنّ القليل منها هو الذي بقي؛ لأنّ اللغات التي اختفت لم تكتب أبداً. وتقرر هذه الدراسات أنّ "الأصل الشفاهي للغة سمة لاصقة بها... والكتابة تعطي اللهجة قوةً تندُّ عن تلك التي تكون لأية لهجة شفاهية خالصة." (١)

وتظهر قيمة الكتابة في أثرها الباقي مع الزمن، وربما يستمر تأثيرها حتى لو تم نقض محتواها، وتفنيده تماماً: "لكن المؤلف لا يمكن الوصول إليه في أي كتاب، فليس ثمة طريقة مباشرة لدحض نص، فحتى بعد التنفيذ الكلي والمدمر لأفكار الكتاب، يظلُّ النص يقول ما قاله من قبل تماماً. وهذا أحد الأسباب لشيوع عبارة "الكتاب يقول"، بمعنى أنّ القول صحيح، وهو أيضاً أحد الأسباب التي من

(١) أونج، والترج. الشفاهية والكتابية. ترجمة: حسن البنا عز الدين، مراجعة: محمد عصفور، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، رقم (١٨٢)، ١٩٩٤م، ص ٥٤.

أجلها أحرقت الكتب، والنص الذي يقول ما يعرف العالم كله أنه باطل، سيظل يقول هذا البطلان إلى الأبد ما بقي النص، فالنصوص عصية بطبيعتها." (١)

وقد طور الإنسان "تكنولوجية المشافهة والكتابة حتى أصبحت متاحة للاستماع والقراءة في أي وقت وبصورة متكررة، بل وتكنولوجيات وأساليب جديدة تماماً، تتيح للمستمع أو القارئ أن يتفاعل من المواد المسموعة والمقروءة، فيطلب التوضيح، أو يلجأ إلى المناقشة والموافقة أو الاعتراض، وقد تمّ ذلك كله مع تطور أساليب النشر الإلكتروني للمحاضرات والخطب، وللمقالات والكتب. وليس ثمّة شك في أنّ على المهتم بالتفاعل الفكري، مثقفاً كان، أو مفكراً، أو داعية، أو مصلحاً، أن يلجأ هذه الساحات المفتوحة ويكون له فيها نصيبٌ، تأثراً وتأثيراً.

خامساً: العبث الفكري واللغوي

من الضروري الوعي بالجهود التي تستهدف العبث بالفكر واللغة؛ ذلك أنّ مضامين اللغة هي معان تتفاوت في قيمتها، وتتفاوت في مصداقيتها، ويكون هذا التفاوت أحياناً بحسب مستعمل اللغة ومراده منها، فالعبارة قد تكون صادقة، وقد تكون كاذبة، وقد يكون الكذب جهلاً، وقد يكون قصداً. والمتكلم يختار ألفاظ اللغة بصورة

(١) المرجع السابق، ص ١٥٨.

تعبّر عن غرضه النبيل أو الخبيث، وقد يكون لهذه الألفاظ ظاهر صريح، أو باطن خفيّ، وقد تجد بعض الناس يؤوّلون ألفاظ اللغة فيحرفون الكلم عن مواضعه، ويمارس هذا العبث وسوء القصد مفكرون وكتاب وحكومات ومؤسسات دولية عند استخدام مصطلحات وألفاظ ورسومات وصور، وتحميلها معاني معينة، لتحقيق أهداف فكرية أو سياسية. والأمثلة على ذلك في جهود الأمم المتحدة والإعلام المحلي والعالمي المعاصر كثيرة.

لقد أصبحت أساليب العبث الفكري واللغوي تستخدم أنواعاً متعددة من المؤثرات التي تصل في قدرتها إلى حد برمجة العقول وغسيل الأدمغة وتقليب القلوب! إن ذلك لا يعني -بطبيعة الحال- أن جميع الناس في أي مجتمع يتنازلون بسهولة عما ترسّخ في قناعاتهم وأعرافهم لعمليات التأثير اللغوي في النفوس؛ إذ من المتوقع أن يكون كثير من الناس على درجة من الوعي بحيث يدركون مقاصد الخطاب اللغوي وأهدافه، فيرفضون ويقاومون ما لا ينسجم مع قناعاتهم الراسخة.

سادساً: الكلام وحديث النفس

من موضوعات العلاقة بين الفكر واللغة، التمييز الذي قدمه علماء الكلام المسلمون، بين الكلام الحسيّ، والكلام النفسيّ. ومقولة الكلام النفسي أساساً جاءت من وصف القرآن الكريم بأنه كلام الله، ومن ثم تقرير التباين بين كلام الله وكلام البشر، فالله سبحانه "ليس

كمثله شيء". فالذين يقولون بالكلام النفسي وهم الأشاعرة على وجه التحديد، يعنون به الكلام الذي يناسب الذات الإلهية المتعالية عن الحدوث والفناء، فهو كلام لا يتكيف بصوت أو هيئة، وإنما هو صفة قديمة غير حادثة. لكنَّ البحث في الكلام النفسي انتقل إلى الكلام البشري، وانشغل به عدد من العلماء منهم: عضد الدين الإيجي (ت ٥٦٦هـ)، وسعد الدين التفتازاني (ت ٧٩٢هـ)، والشريف الجرجاني (ت ٨١٦هـ).^(١) فربطوا "بين الموجود الكلامي الحسي وتفاعلات نفسية وعقلية عميقة، وتشي بها وصلت إليه أنظارهم من قدرة معرفية على تجاوز ظواهر اللغة، ومحاولة تلمس مصادر الموجود الكلامي في مساحات وراء الحس، ولا يبعد أن نعدَّ هذه البصائر اللسانية مقدمة لافتراض وجود حقيقة نفسية psychological reality لأنظمة الكلام الإنساني وقوانين هذا الكلام...^(٢)

سابعاً: الازدواجية اللغوية والثنائية اللغوية وأثرهما في الفكر والثقافة والهوية

تفاوتت آراء الباحثين العرب حول دلالة مصطلح الثنائية اللغوية Bilingualism ومصطلح الازدواجية اللغوية Diglossia نظراً

(١) الزين، عماد أحمد. التفكير اللساني عند علماء العقليات المسلمين، عمان: دار النور المبين للنشر والتوزيع، ٢٠١٤م، ص ٣٠٧-٣٢٥.

(٢) وقد تكون هذه البصائر شبيهة بما قال به تشومسكي عن الأساس الفطري والكيلات اللغوية.

لاعتيادهم على ترجمة المصطلح الأجنبي للمفهومين، فقد لوحظ أن اللغات الأوروبية التي يعود إليها الباحثون العرب تستخدم المصطلح بطريقة غير منتظمة التحديد.^(١) ويبدو أن الاتجاه الأقرب إلى الدلالة المباشرة هي أن الازدواجية اللغوية تعني وجود مستويين لغويين للغة الواحدة؛ مثلاً اللغة العربية الفصحى والعامية. وهي صفة للمجتمع بصورة عامة، تترسخ عبر فترة من الزمن لا تقل عن ثلاثة أجيال، أما الثنائية اللغوية فهي تعني وجود لغتين مختلفتين، لغة وطنية ولغة أجنبية، وقد تكون هذه اللغة الأخرى، لغة أجنبية تستعمل من قبل أفراد عند الحاجة أو في مجالات ضيقة، أو لغة ثانية تستعمل على نطاق واسع في المجتمع، أو ممن اكتسبوا الثنائية اللغوية عن طريق النشأة في بيئة ثنائية اللغة أو عن طريق التعليم.^(٢)

(1) Chin, Ng Bee and Wigglesworth, Gillian. *Bilingualism*, New York, Rutledge Applied Linguistic. 2007, pp 5-8. See also:

- Myers-Scotton, Carol. *Multiple Voices: An Introduction to Bilingualism*, New York: Blackwell Publishing Ltd, 2006, pp Chapter 2 on Dialect pp. 16-34, Chapter 3 on Bilingualism pp. 35-66.

- محمود، إبراهيم كايد. "العربية الفصحى بين الازدواجية اللغوية والثنائية اللغوية"، *المجلة العلمية لجامعة الملك فيصل (العلوم الإنسانية والإدارية)*، المجلد الثالث، العدد الأول اذو الحجة ١٤٢٣ / مارس ٢٠٠٢م، ص ٥٣-١٠٨.

(٢) الموسى، نهاد. ما كان وما هو كائن وما ينبغي أن يكون، ندوة الازدواجية في اللغة العربية، عمان: الجامعة الأردنية ومجمع اللغة العربية الأردني، ١٩٨٨م، ص ٨٤.

وثمة دراسات كثيرة حول الازدواجية اللغوية، والثنائية اللغوية يعرفها أهل الاختصاص في الدراسات النفسية واللغوية والتربوية. وقد تنوعت هذه الدراسات تنوعاً كبيراً في مرجعياتها الفلسفية، والاجتماعية، والسياسية، وفي مناهجها النظرية والميدانية المسحية أو التجريبية، وفي نتائجها التي تكشف عن آثار سلبية أو إيجابية على تعلم الفرد وتشكيل شخصية واثمائه، وعلى المجتمع وتماسكه واستقرار هويته... إلخ.

والذي يهمننا هنا هو أثر هاتين الظاهرتين على عملية التفكير، ومستوى الدقة والوضوح في التعبير عن الأفكار بصورة تيسر فهمها وتمثلها، ففي مجال الازدواجية اللغوية نجد دراسات جادة تؤكد أن اللهجة "العامية قاصرة عن أن تفي بالتعبير عن الأمور الثقافية والفكرية والفلسفية، وعلى المتكلم في هذه المواضيع أن يعود إلى الفصحى إذا أراد التعبير عما يقول بشيء من الدقة." (١)

وتذكرنا الثنائية والازدواجية اللغوية بالازدواجية الفكرية التي تمثل خطراً على الهوية الفكرية للمواطن في مجتمعنا المعاصر الذي يعيش في محيط من الثقافة تشكله أجهزة الإعلام والتواصل المعاصر. وهي ثقافة تسهم إسهاماً عميقاً في طريقة تفكير الإنسان. ومع أن

(١) الزغول، محمد راجي. الازدواجية في اللغة العربية، ندوة الازدواجية في اللغة العربية، عمان: الجامعة الأردنية ومجمع اللغة العربية الأردني، ١٩٨٨ م.

المواطن في مجتمعاتنا ينشأ ضمن هوية وانتماء ديني تقليدي يتحدث عن المثال الذي ينبغي التوجه إلى تحقيقه، فإن الثقافة المعاصرة تكرر واقعاً بعيداً عن هذا المثال، تغلب عليه سطوة المادة والمال والسياسة.

إن التنبه إلى مخاطر الشائبة والازواجية اللغوية لا يعني بالضرورة نبت تعلم لغة أو لغات أجنبية، لما في ذلك من أثر في توسيع ثقافة الإنسان المفكر، أو الذي يتحدث بالفكر. لكن كثرة استخدام المصطلح الأجنبي في الحديث، لا سيما الشفاهي ليس أمراً محموداً، ويُعدُّ عجزُ الشخص عن التعبير بالعربية عن الفكرة والتجاؤه إلى المصطلح الأجنبي نقصاً غير لائق في حقّه.

الفصل السادس:

مراكز إنتاج الفكر، ومختبرات بناء الأفكار

مقدمة:

لا يقتصر إنتاج الأفكار على مبادرات الأفراد وإبداعاتهم، لا سيما في المجتمعات المعاصرة التي أنشأت مؤسسات متخصصة للبحوث والدراسات لإنتاج الأفكار وتطويرها. وتحمل هذه المؤسسات أسماء مختلفة منها: مركز، أو معهد، أو منتدى، أو جمعية، ... إلخ. وقد أطلق عليها باللغة الإنجليزية عبارة *Think tanks*، وترجم هذه العبارة بطرق مختلفة، منها ما يقارب دلالة المعنى اللغوي فيقال: خزانات الأفكار، أو صهاريج الأفكار، أو مستودعات الأفكار، أو صوامع التفكير، أو مختبرات صنع الأدمغة ...، ومنها ما يحاول إعطاءها وصفاً سلبياً مثل: أدمغة لحرب الأفكار. أو مصانع أسلحة الفكر، وأغلبها يكتفي بالدلالة العملية المباشرة لعنوان المؤسسة: مركز بحوث، أو مركز دراسات.

وهذه المؤسسات لا تنتج الأفكار من أجل تخزينها، وإنما تُنتجها من أجل أن تتمكن الجهات المستهدفة بهذه الأفكار من الاستعانة بها في اتخاذ القرارات المناسبة. ولذلك فإنَّ هذه الجهات المستهدفة تتطلع أن تقوم هذه المؤسسات بالمهام المنوطة بها، ومن أجل ذلك فإنَّها توفرُّ لها الدعم المالي، والحرية في تنظيم النشاطات اللازمة من اجتماعات ومؤتمرات ومنشورات، التي يشترك فيها باحثون وخبراء

ومختصون بموضوع البحث، من داخل المؤسسة وخارجها، ومن داخل الدولة وخارجها كذلك.

وتتنوع موضوعات الاهتمام البحثي في هذه المؤسسات، لتشمل مسائل السياسة الداخلية، والعلاقات الدولية، وقضايا الاقتصاد والتسويق والتنمية، وموضوعات البيئة، وقضايا الأسرة، والطفولة، والتعليم، وغير ذلك.

أولاً: تطوير الأفكار بين الإبداع الفردي والعمل الجماعي

يشير تاريخ الفكر البشري إلى أن التفكير والإنتاج الفكري كان في معظم فترات التاريخ عملية داخلية فردية إلى حد كبير. لكن بعض جوانب الحياة الاجتماعية تتطلب التفكير الجماعي، سواءً من حيث تداول التفكير في موضوع معين، بين مجموعة من الأفراد للوصول إلى فكرة مشتركة، أو من حيث تداول التفكير في فكرة فرد واحد، للوصول إلى قناعة مشتركة بين أفراد المجموعة. وقد يتم ذلك باتفاق مسبق على خطة تتحدد فيها أدوار المشاركين في التفكير وخطوات عملهم للوصول إلى نتيجة محددة، وهذا هو شأن البحث العلمي الذي تقوم به مؤسسات متخصصة.

وعرفت بعض فترات التاريخ أنواعاً من التفكير والبحث الجماعي، والتشاور العلمي، فقد تكون محاورات أفلاطون ومناقشات أرسطو، من هذا الباب. لكن المثال الأوضح هو الإمام أبو حنيفة

النعمان الذي كان يحاور تلاميذه، فيعطي كلَّ منهم رأيه في المسألة ويتجادلون فيها، حتى يتم استيعابها وفهمها، "وبعد أن يقبلوا النظر من كل نواحيه يُدلي هو بالرأي الذي تنتجه هذه الدراسة، ويكون صفوها، فيقر الجميع به ويرضونه."^(١) فكان منهجه أشبه بالمدارسة منه إلى شيخ يُلقي درسه على تلاميذه. والمعروف أن أصحاب أبي حنيفة هم الذين كتبوا فقَّهه وجمعوا ما كان ينتهي إليه درُّسه، بل إنَّ أكثرهم اهتماماً بتدوين فقَّه أستاذه وهو الأمام محمد بن الحسن، كان يكتب ما يحفظه هو من نتائج الدارسة، أو ما سمعه من زميله أبي يوسف، ثم يعرض ما يكتبه على أبي يوسف. وبذلك كان تدوين الفقَّه الحنفي أشبه ما يكون بالفقَّه الجماعي. واختار إخوان الصفا أن يعبروا عن مواقفهم وآرائهم بصورة تخفي شخصيات الأفراد الذين كانوا يشكِّلون المجموعة.

ثانياً: نشأة مراكز البحث وأهدافها واتجاهات عملها

فكرة المؤسسات العلمية البحثية بصورتها المعروفة اليوم فكرة حديثة لم تظهر على نطاق واسع لا في العالم الإسلامي ولا في الغرب الأوروبي. فهذه المؤسسات قادت إليها الحاجة وتراكم الخبرات، كما قادت الحاجة والخبرات المتراكمة إلى إنشاء المؤسسات المتخصصة

(١) أبو زهرة، الإمام محمد. أبو حنيفة حياته وآراؤه وفقَّهه، القاهرة: دار الفكر العربي، ط٢، ١٩٤٢م، ص ٨٧.

الأخرى في كثير من مجالات الحياة.

تختلف مراجع تاريخ الأفكار في بداية تأسيس المراكز البحثية في العالم في العصر الحديث؛ إذ يرى لورنس ريد أن عام ١٧٨٧ شهد أول مجموعة الأشخاص أسست ما يمكن يُعدُّ أول مركز للبحوث في العالم، وذلك عندما أسس توماس كلارسون في بريطانيا "جمعية إلغاء تجارة الرقيق الأفريقي". "وأخذت الجمعية تناضل من أجل هذا الهدف متسلحة بالأفكار والحقائق التي لا يمكن دحضها عن صور المعاناة، والقمع، والتعذيب، وإهدار الكرامة الإنسانية، الذي يتعرض له الرقيق المجلوب من أفريقيا.^(١) وفي عام ١٨٣١ أنشأت روسيا القيصرية "المعهد الملكي للدراسات الدفاعية، وفي عام ١٨٨٤ تأسست جمعية فابيان البحثية في لندن. وفي عام ١٩١٠ أنشئت مؤسسة كارنيغي للسلام في واشنطن، ومع ذلك فإن معظم المراجع تشير إلى

(1) Reed, Lawrence W. *A Student's Essay That Changed the World*, London: Mackinac Center for Public Policy, 2009, p 3-4

وهذا المرجع هو كتيب صغير الحجم (١٢ صفحة) يتحدث عن قصة توماس كلارسون الذي كان طالباً في جامعة كامبردج في الخامسة والعشرين من العمر، شارك في مسابقة مقالة عن معاناة الرقيق الأفريقي، وأجرى بحثاً ملاًه بالدلائل والشهادات الحية عن القسوة التي يصعب وصفها، وفازت المقالة بالجائزة. لكن كلارسون أخذ بعد ذلك يفكر في ما كتبه، ومسؤوليته عما عبر عنه في المقالة، وانتهى الأمر بالتداول مع مجموعة من أصدقائه وتكوين جمعية حملت على نفسها السعي لإيقاف هذه المعاناة الإنسانية الصارخة.

أن أول مركز بحثي بالمواصفات المعروفة اليوم هو مركز بروكنغز التي تأسس في واشنطن عام ١٩١٦ .

لقد أصبحت مراكز "البحوث والدراسات" الملحقه برئاسة الحكومة أو الوزارات ظاهرة أساسية في معظم دول العالم. وبعض هذه المراكز هي وحدات ضمن الهيكل الرسمي لمؤسسات الدولة، تقوم بالدراسات المتخصصة في الشؤون الخاصة بكل وزارة، وتتلقى موازنتها المالية ضمن موازنة وزاراتها. وتكون مهمة هذه المراكز أقرب إلى توفير البيانات والمعلومات الأساسية والتقارير الدورية، ويمكنها أن تقدم أفكاراً جديدة لتطوير أداء الوزارة المعنية. وأعمال هذه الوحدات مبرمجة في العادة بصورة تقليدية رتيبة. لكن هناك مراكز أخرى تهتم بدراسات أوسع نطاقاً، وتتعلق بالسياسات العامة والرؤى الاستراتيجية والقضايا الكبيرة. وتجربة الدول الغربية في هذا النوع من المراكز هي إعطاء الحرية الفكرية لهذه المراكز، وتمكينها من أن تكون أكثر استقلالاً عن مؤسسات الحكومة، فقد تكون تابعة للأحزاب المتنافسة، أو للجامعات أو مستقلة تماماً، وتنال من الدعم المالي شيئاً كثيراً، ويكون استقلالها أساساً لحريتها في البحث والدراسة، ولإعطائها الوقت الكافي، والمال اللازم لتنفيذ برامجها، دون ضغط القضايا الراهنة والمشكلات المستعجلة.

إنّ مراكز البحث هذه تنتج أفكاراً إستراتيجية كبيرة، في مسائل السياسة والاقتصاد والعلاقات الدولية والمشكلات البيئية، وصراع

المصالح والحروب الفكرية. وثمة جهات متعددة تشتري خبرات هذه المراكز حين تلجأ إليها لتقديم توصياتها لصناع القرار سواءً في الحكومات أو الأحزاب المتنافسة، أو الشركات الكبرى.

ومعظم المراكز البحثية تشترك في تحقيق ثلاث فئات من الأهداف، هي: إنتاج المعرفة والأفكار لخدمة الجهة المستهدفة، ورفع كفاءة الباحثين في إجراء الدراسات والبحوث في مجالات اهتمام المراكز بالتدريب وتبادل الخبرات، و تثقيف فئات معينة من المجتمع بالترويج لأفكار المركز وتوجهاته عن طريق النشر والتغطية الإعلامية. لكن كثيراً من هذه المراكز أصبحت تمارس ضغوطاً لترويج سياسات محددة حول القضايا المحلية والدولية، وارتبطت بشبكات الاتصال والتأثير على صناع القرار في فروع الحكومة التشريعية والتنفيذية والقضائية فضلاً عن الاقتصاد والإعلام. كما أصبحت تدير صوراً متعددة من حروب الأفكار بين الشخصيات والأحزاب والحكومات المتنافسة، مما ألقى ظلال الشك على وسائل تمويلها ومن ثم مصداقيتها.

وهناك أمثلة متعددة على مراكز للفكر التي تخدم التنافس على المصالح والنفوذ، أنتجت في السنوات الأخيرة ما يمكن وصفه بالأفكار الشيطانية. أشار إلى بعضها كتاب صدر في فرنسا، وكشف عن كثير من الخبايا الفكرية لدى أوروبا والولايات المتحدة

الأمريكية، وهي خبايا يتم صنعها في مراكز الفكر التي تعد أدمغة لحرب الأفكار.^(١)

لكن مراكز الفكر ليست كلها من النوع المشار إليه، فهناك مئات من مراكز الفكر في الغرب تحاول صناعة "أبنية فكرية" إستراتيجية لخدمة هذا العالم وتمكينه من مواجهة التحديات الاجتماعية والاقتصادية والبيئية.^(٢)

وإذا كان وجود المراكز الفكرية يمثل ظاهرة غنيّة في البناء الفكري في أي مجتمع، فإنّ مجتمعات العالم الإسلامي مجتمعات فقيرة فكرياً إلى حد كبير. والحاجة ماسّة إلى إنشاء كثير من هذه المراكز الفكرية المتخصصة؛ فهذه المراكز تستطيع أن تؤدي دوراً مهماً في توليد الأفكار وتطويرها من خلال المشاريع البحثية الجماعية، بالإضافة إلى أنها توفر أساساً معرفياً لاتخاذ القرارات المناسبة أو تزويد متخذ القرار بالمسوغات اللازمة لاتخاذ قراره.

(١) بوشيه، ستيفن. ورويو، مارتين. مراكز الفكر: أدمغة حرب الأفكار، بيروت وأبو ظبي: دار الفارابي ومؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، ٢٠٠٩م.

(٢) في الولايات المتحدة وحدها أكثر من ١٨٠٠ مركز من هذه المراكز، منها حوالي ٤٠٠ مركز تقع مكاتبها قريباً من مركز صنع القرار في واشنطن، وأشهرها معهد بروكينغز المهتم بالدراسات الاجتماعية والاقتصاد، ومؤسسة راند التي تعمل في مجالات عديدة أهمها الدفاع والأمن القومي، ومؤسسة كارنيجي المتخصصة في السياسة والعلاقات الخارجية. وفي أوروبا أكثر من ١٢٠٠ مركز فكري، وفي الصين حوالي ٤٢٥ مركزاً.

مع أنّ أهداف المراكز البحثية تتنوع تنوعاً واسعاً، فإنّ جمع البيانات الأساسية وتنظيمها وتحليلها للوصول إلى معلومات ذات قيمة هو هدف مشترك لمعظم أنواع البحوث. وتكون هذه المعلومات هي الأساس لاتخاذ القرارات. وبعض مراكز البحوث متخصصة في نوع معين من المعلومات هي قياس الرأي العام تجاه قضايا سياسية أو اقتصادية أو تعليمية ... إلخ، مما يعين صانع القرار على اتخاذ القرار المناسب. ويتم قياس الرأي العام أحياناً بصورة دورية للكشف عن اتجاه التغيير مع الزمن، أو التغيير نتيجة أحداث، أو مواقف، أو قرارات معينة.

وتقوم بعض التحليلات السياسية على التنبؤ بنتائج دراسات قياس الرأي العام، ويتوقعون على أساسها نتائج محددة، مثل نتائج الانتخابات مثلاً. والانطباع الذي يتكون لدى المتلقي أن النتائج المتوقعة للانتخابات ستكون مطابقة أو قريبة جداً للنتائج التي أظهرتها دراسات قياس الرأي العام، مع العلم بأن التنبؤ الإعلامي الواسع بنتائج القياس ربما يكون أداة فعالة في التأثير في الرأي العام ليكون في الاتجاه المنشود للترويج الإعلامي.⁽¹⁾ وهذا ما يعبر عنه بالتلاعب بالرأي العام.

(1) Frankovic, Kathleen A. "Exit polls and Pre-Election Polls" in *The Sage Handbook of Public Opinion Research*, by Wolfgang Donsbach and Michael Trougott. Sage Publication Ltd, 2007, p. 570-579.

والأمثلة على مسألة التلاعب كثيرة، منها ما كشفت عنه صحيفة الغارديان في عددها الصادر يوم ١٦ مارس عام ٢٠١٤م، من أن "وزارة الدفاع البريطانية تطور برنامجاً بحثياً سرياً تقدر كلفته بملايين الجنيهات، حول مستقبل الحرب الإلكترونية، بما في ذلك كيفية توظيف التكنولوجيات الناشئة مثل وسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي وتقنيات التأثير النفسي التي يمكن تسخيرها من قبل الجيش للتأثير في معتقدات الناس." ومن هذه المشاريع مشروع يسمى "تقنيات جديدة للتأثير في مشاعر العامة وتوليد التصورات".^(١) وهذه البرامج يتم تمويلها من قبل وزارة الدفاع البريطانية في شراكة مع شركات الأسلحة، والأكاديميين، وخبراء التسويق، ومراكز البحوث Think Tanks. ومع أن مشروعات عديدة ومتنوعة يتم تطويرها، تتعلق بتصنيع السلاح وقضايا الجيش، والرأي العام حول الجيش والسلاح، فإن الإعلان عن هذه المشروعات يأتي تحت عناوين عامة غير محددة، مثل "نشاطات جمع البيانات والتواصل تحت عنوان Information Activities and Outreach".^(٢)

ثالثاً: البحث في موضوع مراكز البحث

نشطت في السنوات الأخيرة مجموعات بحثية مختلفة تدرس واقع مراكز البحوث، وتعمق في الكشف عن طبيعة عملها، وما تحاول

(1) Novel Techniques for Public Sentiment and Perception Elicitation.

(2) <http://www.theguardian.com/uk-news/2014/mar/16/mod-secret-cyberwarfare-programme>.

تحقيقه من أهداف، وما تثيره من تساؤلات، ولا سيما من خلال "تلاعبها" بالرأي العام والإعلام، فضلاً عما تقدمه من توصيات للسياسيين ورجال المال والاقتصاد، أو ما تقدمه لهم من تبرير لقراراتهم. وتهتم هذه المجموعات البحثية على وجه الخصوص بمصادر الدعم التي تتلقاها مراكز البحوث ومدى الشفافية التي تظهرها هذه المراكز عن هذه المصادر. ومن بين هذه المجموعات البحثية مجموعة أمريكية تسمى Transparify، ومركز (إدموند سافرا) للأخلاقيات في هارفارد at Harvard Edmond J. Safra Center for Ethics ، ومؤسسة بريطانية أطلقت على نفسها اسم "من يمولكم؟؟ Who funds you. وقد نشرت مجموعة transparify نتائج دراسة مسحية هي الأولى من نوعها، وقد أجرتها على ١٦٩ من المراكز البحثية التي يصدق عليها اسم Think Tanks في ٤٧ دولة. وقد كشفت هذه الدراسة عن سجل ضعيف من حيث الإدلاء ببيانات موثوقة عن مصادر تمويل المراكز البحثية.

وأشار التقرير إلى أن مركزاً واحداً من بين كل ثلاثة مراكز يظهر شفافية كافية عن مصادر تمويله. وأظهرت النتائج أن ٢١ مركزاً فقط تتصف بشفافية عالية، إضافة إلى ١٤ مركزاً آخر تُعدّ شفافة بصورة عامة، بينما كان ١٣٤ مركزاً يظهر قليلاً من الشفافية عن مصادر تمويله أو لا يعطي أية معلومات نهائياً.

ويلاحظ أن المراكز التي تتصف بشفافية عالية وعددها ٢١

مركزاً تتوزع على ٢٦ دولة من دول العالم، واللافت للنظر أن عدد المراكز البحثية التي تتصف بشفافية عالية في جمهورية الجبل الأسود أكثر منها في الولايات المتحدة الأمريكية. ويثير نقص الشفافية هذا في مراكز البحوث أسئلة عن برامج عملها الخفية، وبذلك تهدم فاعلية قطاع مراكز البحث بأجمعه." (١)

وتواصل الجهود التي تسعى إلى عوالة مراكز الفكر وجمع بيانات تفصيلية عن أهداف هذه المراكز ونشاطاتها في كل أنحاء العالم. وفي هذا المجال تأسس عام ١٩٨٩ برنامج في جامعة بنسلفانيا الأمريكية لتوفير قاعدة بيانات عن هذه المراكز، وإجراء بحوث حول اتجاهاتها ودورها بوصفها عناصر فاعلة في المجتمع المدني في عمليات صنع السياسات بهدف: "خلق مؤسسات دائمة ومشاركات رسمية، لإدماج مراكز الفكر وتفعيل دورها لإنتاج "بحوث سياسات" من مستوى متقدم، قادرة على تشكيل آراء وممارسات العامة والنخبة في مجال المنفعة العامة." (٢)

وبدأ البرنامج منذ عام ٢٠٠٧ في نشر كشاف عالمي عن مراكز الفكر في مختلف أنحاء العالم، وتقديم خدمات فنية وبرامج بناء

(1) Transparency. *How Transparent are Think Tanks about Who Funds Them?* Tbilisi/Georgia: Transparency, May 2014, p.3.

(2) McGann, James G. *2013 Global Go to Think Tank Index Report*. Philadelphia, PA, USA, Think Tanks and Civil Societies Program, University of Pennsylvania, 2014, p.5.

قدرات في ٨١ دولة. وفي تقريره عن عام ٢٠١٣ الذي صدر في يناير ٢٠١٤م، يشير البرنامج إلى سعيه لإنشاء شبكات إقليمية ودولية لمراكز الفكر من أجل تيسير التعاون وتحقيق منافع عامة.

واسم البرنامج "برنامج مراكز الفكر والمجتمعات المدنية."^(١) وقد وضع التقرير الذي يتكون من ١١٧ صفحة على غلافه الخارجي عبارة توضح شعار البرنامج، وهو: "المساعدة في جسر الهوة بين المعرفة والسياسة". كما وضع ثلاث عبارات توضح هدفه المعلن ومجال عمله وهي:

- "البحث في التوجهات والتحديات التي تواجه مراكز البحوث وصناع السياسات، وجماعات المجتمع المدني ذات الاهتمام بالسياسات.

- بناء قدرات مراكز الفكر في العالم، والاحتفاظ بهذه القدرات وتقويتها.

- توفير أكبر قاعدة بيانات وأكثرها شمولاً عن أكثر من ستة آلاف مركز فكري في العالم.

وكان عدد مراكز البحوث التي تضمنتها الدراسة ٦٨٢٦ مركزاً بحثياً، من ١٨٢ دولة في العالم، توزعت على الصورة الآتية: الولايات

(1) The Think Tanks and Civil Societies Program.

المتحدة الأمريكية ١٧٨٠ مركزاً (٢٦.٠٧٪)، وأوروبا الغربية ١٢٧٠ مركزاً بنسبة (١٨.٦٪)، الصين ٤٢٦ (٦.٢٪)، الهند (٤.٢٪) ٢٨٦، اليابان (١.٦٪) ١٠٨، البلاد العربية ٣٨٧ (٥.٧٪). ويتضمن التقرير تصنيفات متعددة لمراكز البحوث على أساس التوزيع الجغرافي للمراكز في العالم، والوظيفة المتخصصة لهذه المراكز، وجوانب الإنجاز المتميز لها، مما يقدم صورة أكثر شمولية عن عمل هذه المراكز على المستوى العالمي.

ولم يخصص التقرير فئة خاصة لمراكز للبحوث في الدول العربية، وإنما وضع هذه الدول ضمن فئة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، وتشمل الدول العربية وإسرائيل وتركيا وإيران. وقد تضمنت هذه المنطقة أفضل ٥٠ مركزاً بحثياً. وكان نصيب تركيا منها ٤ مراكز، وإيران مركز واحد وإسرائيل ١١ مركزاً. وتوزعت الدول العربية بقية المراكز فكان نصيب مصر ٩ مراكز، والإمارات ٤، والأردن، وقطر، والكويت، ولبنان ٣ مراكز لكل منها، والمغرب، والبحرين، مركزان لكل منهما، والسعودية، وفلسطين، وتونس، وليبيا، واليمن، مركز واحد لكل منها.

وتأتي أهمية هذه الوثيقة ليس فقط من النتائج التي تمخضت عنها، وإنما تأتي كذلك من أعمال منهجية ذات مستويات عالية من الضبط، وسلسلة من الإجراءات والخطوات شارك في تحديدها وممارستها عدد كبير من الباحثين. وكان لهذا النمط من الدراسات أثره في انتباه إدارات

المراكز البحثية إلى أمور متعددة وجوانب متنوعة من عمل المراكز لم تكن موضع رعاية واهتمام في السابق. لكن هذه الأمور بعد إثارة الأسئلة حولها أصبحت موضع اهتمام وبرمجة في عمل المراكز.

وقد نُشرت في الآونة الأخيرة بعض الكتب المتخصصة التي تكشف عن المدى الذي وصلت إليه مراكز البحوث في الولايات المتحدة الأمريكية من التأثير على عملية صنع السياسات الأمريكية في البيت الأبيض والكونغرس، لا سيما السياسات الخارجية. ومن بين المراكز الذي وصل أثرها إلى حدود كبيرة معهد بروكنجز، ومؤسسة التراث Heritage Foundation، ومشروع للقرن الأمريكي الجديد Project for the new American Century. لقد أصبحت بعض مراكز البحوث المشهورة من اللاعبين الرئيسيين في الساحة السياسية. وخلال نصف القرن الماضي كانت مراكز البحوث عنصراً أساسياً في هيكلية السياسة الأمريكية، عن طريق تقديم النصيحة للرؤساء وصناع السياسات، وتقديم شهادات الخبراء في اجتماعات الكونغرس.

إن كثيراً من التقارير التي قدمتها مراكز البحوث واتُّخذت على ضوءها قرارات بقيت لسنين موضع جدل،^(١) بما في ذلك تطوير ونقل

(١) يمكن التعرف على كثير من أمثلة نفوذ مراكز البحوث وأثرها في شن الحروب الأمريكية في العالم في أستاذ العلاقات الدولية في جامعة بوستن الذي كان مشاركاً في هذه الحروب، والكتاب بعنوان العسكرية الأمريكية الجديدة: كيف يتم إغراء الأمريكيين بالحروب.

صواريخ الدفاع الوطني، وحرب جورج بوش الابن على الإرهاب. وقد كشفت الكتب والدراسات حول واقع مراكز البحث الأمريكية، عن نقص وعدم شفافية في البيانات الأساسية عن هذه المراكز، وطرق إدارتها، والنفوذ الذي تتمتع به في العاصمة الأمريكية والمحابة التي تلقاها بوصفها مؤسسات معفاة من الضرائب. كما تؤكد نتائج هذه الدراسات عن مراكز البحوث أهمية معرفة الآثار بعيدة المدى المترتبة على السياسات التي أوصت بها تلك المراكز في المجال الأمني والاقتصادي والبيئي.^(١)

رابعاً: مراكز البحث والإعلام

تعتمد مراكز البحوث على الإعلام اعتماداً كبيراً، فثمة توجهات إيديولوجية مشتركة بين بعض مراكز البحوث وبعض وسائل

- Bacevich, Andrew J. *The New American Militarism: how American are seduced by wars*, Oxford and New York: Oxford University Press, 2005.

(١) من بين الكتب التي درست واقع مراكز البحث الأمريكية، وأثارت الشكوك على مشاكل إدارتها الكتب الثلاثة الآتية:

- Abelson, Donald. *A Capitol Idea: Think Tanks and US Foreign Policy*. Montreal, Canada, McGill-Queen's University Press (August 14, 2006).

- Weidenbaum, Murray, *The Competition of Ideas: The World of the Washington Think Tanks*, Piscataway, New Jersey: Transaction Publishers (March 31, 2011).

- Medvetz, Thomas. *Think Tanks in America*, Chicago: University Of Chicago Press, (September 6, 2012).

الإعلام، لا سيما القنوات التلفزيونية التي يشاهدها ملايين الناس، حيث تُظهر هذه الوسائل شخصيات هذه المراكز وتقاريرها بصورة مكثفة. وهناك مؤسسات صحفية تابعة مباشرة لمراكز البحوث.

وقد نشرت مؤسسة ترانسباريتي Transparency على مدونتها مقالة كتبتها "جين ارمسترونج".^(١) والكاتبة هي محللة في مركز بحثي يسمى "منظمة مبادرة المساءلة العامة" Public Accountability Initiative. وتوثق المقالة تفاصيل عن طبيعة العلاقة بين مراكز البحث والصحافة. أكدت الباحثة في تلك المقالة أن وسائل الإعلام في كثير من الأحيان لا تذكر العلاقات الوثيقة بين الصناعات الدفاعية ومراكز البحوث، لا سيما في المناقشات التي تتم حول قضايا الأمن القومي.^(٢) والمقالة هي مثال معبر عن التغطية التي تقوم بها أجهزة الإعلام لتقارير ودراسات مراكز البحوث الأمريكية. وهو موضوع التدخل العسكري الأمريكي الذي كان متوقعاً في الأزمة السورية.

وينظر الصحفيون عادة إلى الباحثين والعاملين في مراكز البحوث للحصول على مادة يملؤون بها أعمداتهم، بينما ينظر خبراء

(١) انظر المقالة في الرابط

- <http://www.transparify.org/blog/2014/3/2/gin-armstrong>

- تاريخ الاسترجاع ١٦/٦/٢٠١٤م

(٢) لكن هناك منظمات بحثية متخصصة في كشف مثل هذه العلاقات، وتحليل آثارها على السياسات الداخلية والخارجية.

مراكز البحوث إلى الحصول على شهرة معينة لأشخاصهم في وسائل الإعلام، حيث يظهرون بصفتهم "خبراء" يتم التنويه بأرائهم وخبراتهم في البرامج الإخبارية والحوارية في قنوات الإذاعة والتلفزة ووسائل الإعلام المطبوعة، وينشرون المقالات والتحليلات في أكثر من صحيفة في وقت واحد، ويزيد اليوم حضور مراكز البحث وخبرائها في وسائل الإعلام التقليدية والإلكترونية.

خامساً: مراكز البحوث في العالم العربي

أصبحت المراكز البحثية في أي مجتمع معاصر سمة من سمات التقدم العلمي والثقافي والحضاري، تعبر عن حيوية المجتمع وقدرته على التواصل وتوظيف المستجدات من الخبرات الفكرية والعملية. ومن ثم فإن البيئة السياسية والثقافية للمجتمع وتطوره الحضاري هي التي توفر لهذه المراكز قدرتها على العمل الفاعل والتأثير، من خلال الأطر التشريعية، والدعم المالي، والحرية السياسية، والاستقلال الفعلي.

وإنه لمن المحزن حقاً أن نلاحظ الفقر في البحوث والدراسات العربية التي تختص بتوثيق البيانات الإحصائية والتقويمية عن أية مسألة أو قضية في العالم العربي. وما يتوفر من هذه البيانات هي أقرب إلى الخبرات الفردية والانطباعات الشخصية.^(١) وعلى الباحث الذي

(١) يمكن أن نستثني من ذلك البيانات المتعلقة بقوى المعارضة في العالم العربي التي تتولى وزارات الداخلية والمؤسسات الأمنية رصدها وتوثيقها وتوظيفها بصورة فاعلة.

يود الحصول على بيانات ذات قيمة عن العالم العربي أن يعود إلى الدراسات والبحوث التي قامت بها مؤسسات أجنبية. وموضوع مراكز البحوث في هذا المجال لا يشدّ عن سائر الموضوعات الأخرى، من حيث الفقر في البيانات الإحصائية والتقويمية.

ومع أن البيانات التي تقدمها الدراسات والبحوث لا بدّ أن تكون أساساً للقرارات التي يتخذها المسؤولون في الدول العربية، في المسائل السياسية والاقتصادية والأمنية، فإنّ واقع الحال أنّ أساس معظم هذه القرارات هي المزاج الشخصي لصانع القرار، أو من يحيط به من المستشارين الأجانب.^(١) وحين يلزم الاستشهاد بالبيانات فإنّ مصادرها سوف تكون وثائق الأمم المتحدة، ولا سيّما البنك الدولي أو صندوق النقد الدولي، وتقارير مراكز الدراسات والبحوث الأمريكية والأوروبية.

ومن الملاحظ أن المؤسسات الدولية والأمريكية والأوروبية لا

(١) وجد وليد عبد الهادي في بحثه عن دور مراكز البحوث والدراسات في الأردن، أن صانع القرار لا يعتمد على البيانات والنتائج التي تقوم بها مراكز البحوث حتى تلك المراكز التي تمولها الحكومة، وكان أحد الأمثلة على ذلك أن قيام صانع القرار بتغيير الحكومات لا يرتبط بنتائج استطلاعات الرأي التي يقوم بها مركز الدراسات الاستراتيجية في الجامعة الأردنية عن شعبية الحكومات. انظر:

- عبد الهادي، وليد. دور مراكز الأبحاث في صناعة القرار السياسي الأردني ١٩٨٩-٢٠١٠، بيروت: معهد عصام فارس للسياسة العامة والشؤون الدولية في الجامعة الأمريكية في بيروت، سلسلة برنامج "الأبحاث عن صنع السياسات العامة في العالم العربي، سلسلة أوراق عمل رقم ١١ تشرين الأول ٢٠١٢م، ص ١٣-١٤.

تفرد دراسات مستقلة عن العالم العربي، بل تُجمِّله مع الإقليم الأكبر الذي يسمونه الشرق الأوسط وشمال أفريقيا MENA، حيث تحرص هذه المؤسسات أن تجد مكاناً مناسباً لدولة الاحتلال الإسرائيلي فيه إضافة إلى تركيا وإيران وقبرص.

وحتى تتمكن من معرفة البيانات الخاصة بالعالم العربي من الدراسات الأجنبية عليك أن تبذل جهداً إضافياً، لفصل بيانات البلاد العربية عن بيانات الإقليم. ويتضح ذلك إلى حد كبير من البيانات التي قدمتها الدراسة الأمريكية التي نفذتها جامعة بنسلفانيا بعنوان "برنامج مراكز الفكر والمجتمعات المدنية". " وصدر تقريرها في يناير ٢٠١٤ م.^(١)

وقد حاولنا أن نقرأ بعض صور الحضور للمراكز البحثية العربية في هذا التقرير. وتبين لنا أن عدد المؤسسات البحثية في العالم العربي التي تستحق مسمى Think Tank، هو ٣٨٧ مؤسسة، موزعة على جميع الدول الأعضاء في جامعة الدول العربية، باستثناء الصومال وجيبوتي وجزر القمر. وتمثل أقل من ٥,٧٪ من مجموع المراكز البحثية التي تضمنها التقرير (٦٨٢٦). ومن حيث عدد المراكز في البلاد العربية

(1) McGann, James G. 2013 *Global Go to Think Tank Index Report*. Philadelphia, PA, USA, Think Tanks and Civil Societies Program, University of Pennsylvania, 2014.

ويوضح التقرير أن برنامج المراكز البحثية والمجتمعات المدنية The Think Tanks and Civil Societies Program (TTCSP) الذي يتولى عمل هذا الكشاف سنوياً يقدم خدماته في ٨١ بلداً من بلدان العالم، انظر التقرير ص ٥.

التي تضمنها التقرير تأتي مصر في المرتبة الأولى، (٥٥ مركزاً)، ثم فلسطين والعراق (٤٣ مركزاً لكل منهما)، ثم الأردن (٤٠ مركزاً)، ثم تونس (٣٩ مركزاً)، ثم اليمن والمغرب (٣٠ مركزاً لكل منهما)، ثم لبنان (٢٧ مركزاً). ويلاحظ أن المملكة العربية السعودية لديها ٧ مراكز فقط، بينما كان للإمارات العربية المتحدة ١٤ مركزاً، وللكويت ١١ مركزاً، ولقطر ١٠ مراكز.

ومن الواضح أن الفقر البحثي في العالم العربي يتمثل في تواضع عدد المراكز البحثية بالمقارنة مع الدول والأقاليم الأخرى في العالم. لكن الفقر يتمثل في جوانب أخرى لا تقل أهمية عن الجانب العددي؛ إذ كانت رتب بعض مراكز البحث في البلاد العربية التي ظهرت في جداول التقرير متواضعة جداً على جميع معايير نوعية الإنجاز التي بلغت ٢٨ معياراً. ومن بين هذه المعايير مدى نجاح المركز في إنتاج أفكار وبرامج إبداعية، وأثر هذه البرامج في تطوير القيم الاجتماعية وتحسين نوعية الحياة، والقدرة على إشراك أصوات جديدة في عملية صنع السياسات، والالتزام بتطوير معايير وسياسات لإنتاج براهين دقيقة مبنية على البحث والتحليل الموضوعي المستقل عن المصالح الشخصية أو المؤسسة أو المالية، والقدرة على تجنيد مفكرين وباحثين من نوعية متميزة والاحتفاظ بهم.^(١)

(١) المرجع السابق ص ١٣-١٤.

سادساً: قضايا المسلمين في مراكز البحث الغربية

منذ انهيار الاتحاد السوفيتي عام ١٩٩١، تحول اهتمام مراكز البحث الغربية من الخطر الأحمر، الذي كان الاتحاد السوفيتي يمثله، إلى الخطر الأخضر الذي يمثله العالم الإسلامي. وانشغلت مراكز البحث الغربية والصحافة المرتبطة بها بالبحث عن أوجه الخطر التي تمثلها الجماعات الإسلامية التي تحاول تأكيد هوية الشعوب والدول الإسلامية، وبدأت الحكومات الغربية تصنف هذه الجماعات وتلصق بها تهمة الإرهاب، وتمارس الضغوط الكبيرة على دول العالم الإسلامي لمواجهة هذه الجماعات، والحد من نفوذها، وتخفيف منابعتها المالية، ومصادر تجنيد أفرادها في مؤسسات التعليم.

ويندر أن نجد مركزاً بحثياً واحداً من مراكز البحوث الأمريكية لا يهتم بشؤون العالم الإسلامي، لا سيما عندما تقع أحداث سياسية مهمة في بلدان العالم الإسلامي، وما أكثر ما تحدث هذه الأحداث. ولذلك كان من الطبيعي أن تكون أحداث الربيع العربي موضع اهتمام ومراقبة ليس لدى صانعي القرار من السياسيين والعسكريين فحسب، وإنما كذلك لدى مراكز البحوث على اختلاف توجهاتها.

يلاحظ أن نتائج أي دراسة علمية تتحدد في نوعية الأسئلة التي يحاول البحث الوصول إلى إجابات عنها. فعندما تختص الأسئلة بالنظام السياسي ونوعية الحكام، فالنتائج سوف تكون مختلفة تماماً

عنها فيما لو كانت تختص بمشاعر الناس العاديين وأنماط سلوكهم. وعندما يقوم الباحثون غير المسلمين بعمل دراسات عن واقع الالتزام بالإسلام في العالم الإسلامي، تكون القضايا المطروحة مختلفة، وتكون النتائج مختلفة تماماً. فالدراسة التي أجراها مركز باو للبحوث الأمريكي Pew Research Center لم تطرح أسئلة تختص بالحكام ونظام الحكم، وجاءت البيانات مطمئنة للشعور الإسلامي؛ إذ وجدت أن معظم المسلمين في جميع أنحاء العالم ملتزمون التزاماً عميقاً بإيمانهم، ويريدون أن تشكل تعاليمه حياتهم الشخصية ومجتمعاتهم السياسية ويحكموا بالشرعية.⁽¹⁾

أما الدراسة أجراها حسين العسكري وشهرزاد رحمان من جامعة جورج واشنطن، فكانت النتائج مختلفة تماماً؛ إذ استخدم الباحثان ما سموه مؤشر الالتزام الإسلامي "Islamicity index" حيث طبقا مثاليات الإسلام في عدد من مجالات الحياة في المجتمع: الإنجاز الاقتصادي، الحوكمة، الحقوق الإنسانية والسياسية، والعلاقات الدولية... في ٢٠٠٨ بلداً من بلدان العالم.⁽²⁾ وتوصلت الدراسة إلى أن الدول الإسلامية ظهرت في نتائج الدراسة بصورة سيئة جداً، واتهمت

(1) Pew Research Center. The World's Muslims: Religion, Politics and Society, April 30, 2013.

(2) THE IRISH TIMES. Section: Religion & Beliefs, see the link:

- <http://www.irishtimes.com/news/social-affairs/religion-and-beliefs/ireland-closest-to-islamic-economic-teachings-1.1826354>

هذه الدول بأن الصفة الدينية (الإسلامية) التي تدعيها هي أداة للسيطرة. وقالوا: يجب أن نؤكد أن كثيراً من الدول التي تدعي الإسلام هي دول ظالمة، وفسادة، وغير متطورة، وغير "إسلامية" بأي معنى يمتد إليه الخيال.

سابعاً: تعريف ببعض مراكز البحث في العالم

الرقم	اسم المركز	تاريخ إنشائه	البلد	الهدف
١-	وَقْف كارينجي للسلام العالمي	١٩١٠	الولايات المتحدة	دراسة السياسات الخارجية للحد من الحروب وتقديم رؤى تحليلية مقارنة، تسهم في توجيه التطورات السياسية.
٢-	معهد بروكنجز	١٩١٦	الولايات المتحدة	ورسالة المعهد هي تطوير وإجراء ودعم البحث في حقول عامة من الاقتصاد وإدارة الحكومة العلوم السياسية والاجتماعية.
٣-	المعهد الملكي للشؤون الدولية (تشاتام هاوس)	١٩٢٠	المملكة المتحدة	مناقشة صريحة حول قضايا الطاقة والبيئة والموارد، والاقتصاد العالمي، والأمن الدولي والقانون الدولي ودراسات المناطق.

٤-	المعهد الياباني للشؤون الدولية	١٩٥٩	اليابان	دراسة الشؤون الدولية وقضايا الأمن، ويفحص السياسة الخارجية لليابان، ويقدم مقترحات للحكومة، وتوعية للجمهور.
٥-	مركز الأهرام للدراستات السياسية والاستراتيجية	١٩٦٨	مصر	دراسة الموضوعات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية، المرتبطة بمصر والوطن العربي والعالم.
٦-	الأكاديمية الصينية للعلوم الاجتماعية	١٩٧٧	الصين	تطوير العلوم الاجتماعية، و ضمان استمرار حيوية الأمة عن طريق العلم والتعليم. وبذل الجهود اللازمة في مجال التنافس العالمي
٧-	مجلس الاستخبارات الوطني الدولي	١٩٧٩	الولايات المتحدة	التنسيق بين هيئات المعلومات والاستخبارات السياسية الحكومية والحزبية في الولايات المتحدة الأمريكية، واستشراف المستقبل.
٨-	المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات/ قطر	٢٠١٠	قطر	تشخيص الأوضاع في العالم العربي، وتحليل السياسات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

وهذه أسماء هذه المراكز ومواقعها الإلكترونية وقد استرجعت
بياناتها للمرة الأخيرة بتاريخ ٦ / ٩ / ٢٠١٥

١ - معهد بروكنجز

Brookings Institution^(١)

٢ - المعهد الملكي للشؤون الدولية (تشاتام هاوس)

Royal Institute of International Affairs (Chatham House)^(٢)

٣ - الأكاديمية الصينية للعلوم الاجتماعية

The Chinese Academy of Social Sciences (CASS)^(٣)

٤ - وَقْف كارينجي للسلام العالمي

Carnegie endowment for international peace^(٤)

٥ - المعهد الياباني للشؤون الدولية

The Japan Institute of International Affairs (JIIA)

٦ - المركز العربيّ للأبحاث ودراسة السياسات / قطر^(١)

(1) <http://www.brookings.edu/about/history>

(2) http://www.bibliotecapleyades.net/sociopolitica/esp_sociopol_cfr_10.htm

(3) <http://bic.cass.cn/english/Index.asp/>

(4) <http://carnegieendowment.org/>

٧- مركز الأهرام للدراسات السياسية والإستراتيجية^(٢)

٨- مجلس الاستخبارات الوطني الدولي

World National Intelligence Council^(٣)

(1) [http:// www.dohainstitute.org](http://www.dohainstitute.org)

(2) <http://acpss.ahram.org.eg/>

(3) <http://fas.org/irp/nic/>

الخاتمة

كانت هذه المادة عن البناء الفكري، ويتوقع أن يكون القارئ قد لاحظ أن البناء الفكري هو بناء يتصف بالتنظيم والتماسك، والاحتكام إلى مرجعية كلية تعطيه وصفاً محدداً وتميزه عن أوصاف أخرى. وهو يتغير باستمرار في الاتساع والعمق. وموضوع البناء هو الفكر، وهو خاصية للإنسان المخلوق كرمه الخالق بها، وهي أمانة عند كل إنسان عليه أن يراها حق رعايتها، بما يلزمها عن متطلبات النمو السليم والتطوير والتحسين.

وعندما يصل القارئ إلى هذا القدر من القراءة يحق له أن يسأل، ما الذي قرأه؟ وعلى الأغلب سوف يعيد النظر في عنوان المادة المقروءة، وربما نظر في قائمة موضوعات هذه المادة، ليتذكر العناصر الفكرية الكبرى (التضاريس) التي تضمنتها خريطة الأفكار التي كان يقرأها. وربما أعاد قراءة مادة بعض العناوين الفرعية، ليتذكر من جديد ملامح عنصر من العناصر الفكرية للموضوع. وسوف يخطر ببال القارئ أن يتحدث عن موضوع القراءة إلى بعض أهل بيته أو أحد معارفه، فيحدد ما الذي سيقوله، وما الأسئلة التي ربما يسألها، والملحوظات التي سوف يذكرها.

لكنَّ من المؤكّد أنّ القارئ سوف يتذكر شيئاً لم يقرأه، يتذكر بعض العناوين التي كان يبحث عنها، ولكنّه لا يذكر أنّه قرأها في هذه المادة، وربما يعيد النظر في الخريطة من جديد، ليتأكد أنّ تلك العناوين لم تكن موجودة. ومن ثمّ سوف يحدّد لنفسه مهمة جديدة للبحث عن مواد أخرى للقراءة.

وسوف يقفز إلى ذهن القارئ مواد أخرى في الموضوع كان قد قرأها من قبل، وسوف يتفكر في وجوه الشبه والاختلاف بين هذه المادة التي انتهت من قراءتها للتوّ وتلك المواد الأخرى. وفي ضوء ما يتذكره من وجوه الشبه والاختلاف سوف يقوم بعملية تصنيف ليضيف هذه المادة إلى فئة من فئات المواد الأخرى، فهذه المادة مثلاً هي فكر إسلامي، لكنه أقرب إلى أن يقع ضمن مدرسة فكرية إسلامية محددة، وسوف يتذكر أسماء الكتاب والمؤلفين والمفكرين الذين ينتمون إلى هذه المدرسة.

هذه أمثلة على التداعي الذهني، وحركة العقل، ومرور الخواطر، وجوّلان الفكر، وكلها صور من النشاط العقلي البشري الذي يعبر عن الحالة الصحية في توظيف القدرات الفكرية للإنسان، وأيّ ضعف في ممارسة هذا النشاط، يجده القارئ في نفسه، سوف يكون ناتجاً عن خلل في تنظيم عمليات التفكير، يحتاج إلى معالجة.

يتوقع من القارئ أن يتعلم شيئاً عن مقدار الجذب الذي تمثله المواقع الفكرية التي يشغلها بعض أفراد النخبة في المجتمع، والمستويات

المختلفة من البناء الفكري التي تتميز بها فئات النخبة، والخصائص التي تتميز به الغالبية العظمى من الناس، الذين يصعب تصنيفهم في أي موقع. وسوف يتعلم أن الحالة الطبيعية في المجتمع أن تختلف مستويات البناء الفكري لدى الأفراد والفئات، وأن هذا التفاوت أمرٌ محمود، فلكل فرد مستوى فكري معين، ولكل فرد دوره في المجتمع، وتتكامل هذه الأدوار للقيام بالوظائف الفكرية في المجتمع.

ويتوقع أن يتساءل القارئ عن موقع بنائه الفكري بين هذه الصور التي قرأها عن البناء الفكري. سوف يتساءل: ما الذي يملكه من أفكار، وأي المدارس الفكرية هو أقرب إليها؟ وما معالم الخريطة الفكرية التي تمثل مجمل أفكاره وعناصرها الكبرى؟ وما العوامل التي أثرت في تشكل هذه الخريطة؟ وكيف أثرت هذه العوامل ومتى، وبأي مقدار؟ وربما يميل إلى تحديد الموقع الذي يريد أن يكون فيه بعد الآن: موقع العالم أو المثقف أو الداعية أو المصلح أو الفيلسوف أو المفكر.

ويتوقع من القارئ أن يتساءل كذلك عن العلاقة بين الفكر والسلوك، وعن المعنى الذي يشير إليه اتساقهما، والمعنى الذي يشير إليه الاختلاف بينهما. وسوف تقفز إلى ذهنه نماذج من الشخصيات العامة في حالتها الاتساق أو التناقض، وسوف يتخيل الحالة الذي يختارها لنفسه بين الحالتين.

ويتوقع أن يتساءل القارئ عن محددات شخصية الفرد الإنساني، وموقع البناء الفكري في هذه الشخصية بالمقارنة مع البناء العاطفي

والوجداني لهذه الشخصية. هل هما بناءان مختلفان، وكيف يؤثران في شخصية الفرد؟ وما علاقة الموضوعية والذاتية في كل من البناءين؟ إذا استطاعت هذه المادة المكتوبة أن تثير هذه الأسئلة وأمثالها لدى القارئ، وحركته للبحث عن إجابات عنها، فقد حققت هذه المادة بعض أهدافها.

والحمد لله رب العالمين.

هذا الكتاب

الفكر، والتّفكير، والتّفكّر، والتّدبّر، والتّدكّر،... مفاهيمٌ أساسية رافقت الوجود الإنساني، منذ بدء الخليقة، وسوف تبقى معه إلى نهايتها، دون أن تثبت مادتها وموضوعاتها ومستوياتها عند حد معين، في حياة الفرد البشري أو الجيل البشري. فكيف يمكن لكتاب أن يستقصى ذلك!؟

هذا الكتاب إذاً، مدخل إلى الفكر وحسب؛ مدخل في مفاهيمه ومستوياته وخرائطه... تضمن تجوالاً فكرياً: في موضوع الفكر؛ وفي مصادرِه في الأصول والتراث والخبرة المعاصرة، وموضوعاته، وأدواته، ونصيب أصناف أهله منه، والمؤسسات المتخصصة فيه، وعلاقته بالعلم جملةً، وبالعلوم النفسية والتربوية والاجتماعية واللغوية والسياسية...

وهو كذلك مدخل إلى عملية البناء الفكري؛ كيف تبدأ، ثم تتواصل مرحلة بعد أخرى؟ وكيف تترقى من مستوى إلى آخر؟ وكيف تتنوع في المحتوى الذي تبنيه؟

وهو قبل ذلك وبعده، أسئلة كثيرة، وإجابات قليلة؛ فقيمة التّفكّر في إثارة الأسئلة لا تقل عن التفكير في البحث عن إجاباتها، وبعض الإجابات عارضة مؤقتة، تتغير وتتعمق مع مزيد من الفكر والدّكر، والتّفكير والتّدكّر.

قد يجد القارئ في الكتاب بعض مواطن المتعة والطرافة، لكنه سوف يجد كذلك مواطن كثيرة تضطره إلى التّفكير والتّدبّر، فإذا نجح الكتاب في الأمرين، فذلك ما كان يهدف إليه!

فتحي حسن ملكاوي:

تربوي وأستاذ جامعي أردني، دكتوراه في التربية العلمية وفلسفة العلوم من جامعة ولاية ميتشجان الأمريكية عام ١٩٨٤م، المدير الإقليمي في المعهد العالمي للفكر الإسلامي، رئيس تحرير مجلة إسلامية المعرفة، وعضو في مجمع اللغة العربية الأردني، من آخر إنتاجه العلمي: كتاب منهجية التكامل المعرفي؛ مقدمات في المنهجية الإسلامية، وكتاب البناء الفكري؛ مفهومه ومستوياته وخرائطه، وكتاب منظومة القيم العليا: التوحيد والتزكية وال عمران. يعمل حالياً على إخراج مشروع: "التراث الإسلامي، والفكر التربوي الإسلامي".



ISBN 978-56564-640-7-9



9 785656 464079 >